www.kishk.fr



السَّاعَةُ حَقٌّ

فضيلة الشيخ
عبد الحميد كشك

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمد رسول الله ، بُعِثَ لِيُخْرِجَ الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الله الواحد الديان ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، فأشهد يا رسول الله أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ، ومحوت الظلمة وكشفت الغمة ، ونصحت الأمة وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله عنا يا رسول الله خير ما جزى نبيا عن أمته ورسولا عن قومه .

﴿يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون(١) . يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كَانَ عَلَيكُم رقيبا(٢) . يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ (٣) صدق الله العظيم . وبلغ رسوله الأمين ونحن على ذلك من الشاهدين .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب : الآيتان ٧٠ ، ٧١ .

الإهـــداء

اما بعد : فإن أصدق الحديث كتابُ الله تعالى ، وخيْرَ الهدى هدْىُ سيدنا محمد ﷺ ، وشرُّ الأمور محدثاتُها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

وبعد : فإننى أهدى كتابى هذا (الساعة حق) إلى الذين تجردوا من كل عصبية إلا للحق وحده ، أهديه إليهم ليعلموا أن الله تعالى وهب العقل للإنسان ليهتدى به إلى طريق الخير والصلاح والفلاح والنجاح .

إلى الذين ينشدون الحقيقة العليا ، ويسعون وراء المبادىء الثابتة .

إلى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون . فى الدنيا والآخرة**﴾ [البقرة : ٢١٩ – ٢٢٠] .

إذن فالتفكر من لوازم الإنسان الذى يريد أن يكون سعيدا فى حياته وبعد مماته ، لأنه يعلم أن الحياة الدنيا ليست هى النهاية .

فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء .

فالحياة ألم يخفيه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك : يجزى كل امرىء بما فعل :

﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا . ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا**﴾ [الإسراء : ١٨ – ١٩] .

أهديه إلى ذوى البصائر وأولى الأفئدة : ﴿**الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد اخزيته وما للظالمين من انصار**﴾ [آل عمران : ١٩١ – ١٩٢] .

ألا فليعلم الإنسان أن الدنيا عمل ولا حساب ، وأن الآخرة حساب ولا عمل ، وليوطن نفسه على لقاء الله .

وإذا كان ذلك كذلك فليجدد السفينة فإن البحر عميق ، وليكثر الزاد فإن السفر طويل ، وليخلص العمل فإن النّاقد بصير ، وليخفف الحمل فإن العقبة كؤود .

فهلم يا أولى الأبصار ويا أهل العقول والأفهام إلى الوقوف على عتبة الآخرة لتنتبه النفوس ، فإن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا .

أسأل الله أن يرشدنا إلى طريقه المستقيم ، وأن يرزقنا العمل بما نسمع إنه سميع قريب مجيب الدعاء .. رب العالمين .

مقـدمـة

الحمد لله رب العالمين : ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه ، لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير**﴾ [غافر : ١٩ - ٢٠] .

وأشهد أن لا إلـه إلا الله : من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس[١] ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .

يارب :

يا من يجيب العبد قبل سؤاله
ويجـود للصاحيـن بالغفـران
وإذا اتـاه الطالبـون لعفـوه
ستر القبيـح وجـاد بـالإحسان

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدا رسول الله ، صلوات ربى وسلامه عليه . هو الإنسان الكامل والمثل الأعلى والقدوة الطيبة ، أخلص قلبه لله فى السر والعلن وبين ثمرة ذلك ، فقال فى الحديث الشريف : **«من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم»** .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

البدر دونك فى حسن وفى شرف
والبحر دونك فى خير وفى كرم
اخوك عيسى دعا ميتا فقام له
وانت احييت اجيالا من العدم

صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

(١) هذا معنى الحديث الذى رواه ابن حبان ورفعه والطبرانى بإسناد جيد قوى [منتقى الترغيب والترهيب : جـ ٢ ، ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ طبعة دار الوفاء] .

أما بعد :

فإن الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأمانىّ .

فاعلم يا أخا الإسلام أنه لابد لك من قرين يدخل معك قبرك وهو حى وتدخل معه وأنت ميت :

فإن كان صالحًا أكرمك ، وإن كان لئيما خذلك ، فاجعله صالحًا فإنه عملك :

القبر بـاب وكل النـاس داخلـه
يا ليت شعرى بعد الموت : ما الدار؟
الدار دار نعيم إن عملت بمـا
يرضى الإله وإن خالفت : فالنار !
هما محلان ما للعبد غيرهمـا
فانظر لنفسك اى الدار تختار !
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا
وإن هفوا هفوة فالرب غفـار !

كثيرًا ما ألحت الرغبة علىّ فى الكتابة عن (الساعة والبعث وما قبله وما بعده) ، ذلك لأننى وقفت أمام آيات من القرآن الكريم وقفة الاعتبار والنظر ، فرأيتها تناشد الخلق وتهتف بهم أن يستيقظوا من سباتهم وأن يفيقوا من غفوتهم[١] وأن ينشطوا من سدورهم .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿**اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم**﴾ [الأنبياء : ١ - ٣] .

وقوله جل شأنه : ﴿**يا أيها الناس اتَّقُوا ربكم : إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ولكن عذاب الله شَدِيدٌ**﴾ [الحج : ١ - ٢] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سِحْرٌ مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر**﴾ [القمر : ١ - ٣] .

ووقفت أفكر وأطيل التأمل فى هذه الانذارات الإلهية المتلاحقة التى تنخلع لها القلوب ، وتنفطر من هولها الأكباد ، من ذلك قوله جل شأنه :

(١) الغفوة : أى الغفلة .

﴿ أفأمِن أهْلَ القرَى أنْ ياتيهم باسنا بياتا وهم نائمون . او امن اهل القرى ان ياتيهم باسنا ضحى وهم يلعبون . افامنوا مكر الله فلا يامن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : ٩٧ - ٩٩] .

وقوله جلت حكمته : ﴿ ءامنتم من فى السماء ان يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . ام امنتم من فى السماء ان يرسل عليكم حاصبًا . فستعلمون كيف نذير ﴾ [الملك : ١٦ - ١٧] .

كل ذلك وغيره دعانى ، والرغبة شديدة ، والغرض ملح فى الكتابة فى هذا الموضوع الذى يدفع النفوس إلى الإسراع فى تحصيل الخير والبعد عن مسالك الشر ، فإن الدنيا ليست هى دار الجزاء ، إنما الآخرة هى التى يقوم الناس فيها لرب العالمين ليلقى كُلٌ ما قدمت يداه .

فيا أخا الإسلام :

تزود من حياتك للمعاد
وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرًا
فإن المال يجمع للنفاد
اترضى ان تكون رفيق قوم
لهم زاد وانت بغير زاد ؟

قال الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه للعالم الزاهد الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا يا تقى الدين . فقال الحسن : يا أمير المؤمنين : صم عن الدنيا ، وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة !

هذا جلال الموعظة ، وتلك روعة التقوى ، صدرت عن قلب سليم حَلّت فى قلب سليم ، صدرت عن كلمة قالها عالم زاهد ، وطلبها خليفة زاهد ، ومن عجب أنْ نخّرب الآخِرَةَ ونعْمرَ الدنيا ، مع أن التى نخّربها : باقية لا تفنى ، والتى نجرى وراءها ونلهث من متاعبها : فانية لا تبقى !

﴿ إنَّ الذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بِها والذِينَ هُمْ عن آياتنا غافِلُونَ . اولئك مأْوَاهُمُ النّارُ بِمَا كانُوا يكْسِبُونَ . إن الذين آمنوا وعلموا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تَحْتِهِمُ الأنْهارُ فى جَنّاتِ النّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمّ وتَحِيّتُهُمْ فيها سَلامٌ وآخِرُ دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : ٧ - ١٠] .

فصل
الساعة آتية لا ريب فيها

ونقدم فى هذا الفصل آيات بينات من كتاب الله تعالى ، تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، وتثبت على وجه اليقين أن الساعة حَقٌّ وأنها آتية لا ريب فيها ولا يجادل فى ذلك إلا كل كفار أثيم ، ولا ينكر ذلك إلا جَاحِدٌ خَتَمَ اللهُ على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله[1] ؟ وإليكم هذه الآيات البينات من سورة الحج ، وقبل الحديث عنها نعيش فى رحابها ، فنقول فى مقدمة السورة هذه البيانات حتى يعيش القارىء فى رحابها مستظلًا فى ظلها الوارف الظليل :

مقدمة :

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق سوى ست آيات منها[2] ، فهى مدنية : ﴿ **هذان خصمان** ﴾ إلى قوله : ﴿ **صراط الحميد** ﴾ .

وعدد آياتها : ثمان وسبعون فى عد الكوفيين ، وسبع للمدنيين ، وخمس للبصريين ، وأربع للشاميين .

وكلماتها : ألفان ومائتان وإحدى وتسعون كلمة .

وحروفها : خمسة آلاف وخمسة وسبعون .

وسميت سورة الحج لاشتمالها على مناسك الحج وتعظيم الشعائر وتأذين إبراهيم للناس بالحج .

مقصود السورة إجمالًا :

الوصية بالتقوى والطاعة وبيان هول الساعة وزلزلة القيامة والحجة على إتيان الحشر والنشر وجدال أهل الباطل مع أهل الحق ، والشكاية من أهل النفاق بعد الثبات ،

---

(١) ولسان الحال والمقال يقول : لا أحد يهدى إلا الله .

(٢) وقيل : سوى ثلاث آيات ، أربع آيات [تفسير القرطبى : جـ ١٢ ، ص ٢ ط دار الكتب المصرية] .

وعيب الأوثان وعبادتها وذكر نصرة الرسول ﷺ ، وإقامة البرهان والحجة وخصومة المؤمن والكافر فى دين التوحيد ، وتأذين إبراهيم فى الناس بالحج(١) وتعظيم الحرمات والشعائر وتفضيل القربان فى الموسم ، والمنة على العباد بدفع فساد أهل الفساد ، وحديث البئر المعطلة وأنواع الحجة على إثبات القيامة وعجز الأصنام وَعُبَّادِهَا واخْتِيَارِ الرُّسُل من الملائكة والإنس ، وأمر المؤمنين بأنواع العبادة والإحسان ، والمنة عليهم باسم المسلمين ، والاعتصام بحفظ الله وحياطته فى قوله تعالى(٢) : ﴿ **واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ [الحج : ٧٨] .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **يوم ترونها** ﴾ وبعده : ﴿ **وترى الناس سكارى** ﴾(١) : محمول على : أيها المخاطب كما فى قوله : ﴿ **وترى الفلك مواخر فيه** ﴾ [النحل : ١٤] .

قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ [النحل : ٨] كما فى سورة لقمان ، لأن هُنَا ما فى هذه السورة وافق ما قبلها من الآيات وهى : نذير ، القبور ، وكذلك فى لقمان وافق ما قبلها وما بعدها وهى الحمير والسعير والأمور .

قوله : ﴿ **من بعد علم** ﴾ بزيادة (من) لقوله : ﴿ **من تراب ثم من نطفة** ﴾ وقد جاءت آية النحل بغير من فى قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لِكَىْ لا يعلم بعد علم شيئا** ﴾ لخلوها مما جاء فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ **ذلك بما قدمت يداك** ﴾ وفى آل عمران وغيرها : ﴿ **أيديكم** ﴾ لأن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث وقيل فى أبى جهل وحده ، وفى غيرها نزلت فى الجماعة الذين تقدم ذكرهم .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى** ﴾ قدم الصابئين لتقدم زمانهم .

(١) نسبة لقوله سبحانه : ﴿ **وأذن فى الناس بالحج** ﴾ .
(٢) ينظر التفسير الموضوعى للقرآن للشيخ الإمام الراحل محمد الغزالى ، ط دار الشروق جـ ٢ ، ص ١٠٩ .

قوله تعالى : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها** ﴾ . وفى السجدة : ﴿ **منها أعيدوا فيها** ﴾ لأن المراد بالغم الكرب والأخذ بالنَّفس حتى لا يَجِدُ صَاحِبُهُ متنفسًا ، وما قبله من الآيات يقتضى ذلك . وقوله : ﴿ **قُطِّعَتْ لهم ثياب من نار** ﴾ إلى قوله : ﴿ **من حديد** ﴾ .

فمن كان فى ثياب من نار فوق رأسه جهنم يَذوب من حَرِّه أحشاءُ بَطْنه حتى يذوب ظاهر جلده ، وعليه موكلون يضربونه بمقامع من حديد ، كيف يجد سرورا ومتنفسا من تلك الكرب التى عليه ، وليس فى السجدة من هذا ذكر ، وإنما قبلها : ﴿ **فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** ﴾ [السجدة : ٢٠] .

قوله تعالى : ﴿ **وذوقوا** ﴾ . وفى السجدة : ﴿ **وقيل لهم ذوقوا** ﴾ القول ها هنا مضمر ، وخص بالاضمار لطول الكلام بوصف العذاب ، وَخُصَّتْ سورة السجدة بالإظهار موافقة للقول قبله فى مواضع منها : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ ﴿ **وقالوا أئذا ضللنا** ﴾ ، و﴿ **حق القول** ﴾ وليس فى الحج من ذلك شىء .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ مكررة الآية ٢٣ وموجب التكرار قوله : ﴿ **هذان خصمان** ﴾ لأنه لما ذكر أحد الخصمين وهو : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار** ﴾ لم يكن بد من ذكر الخصم الآخر ، فقال سبحانه : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ لأن لكل فريق مقابل ولكل صفة عكس (ضد) فبضدها تتميز الأشياء .

قوله تعالى : ﴿ **وطهر بيتى للطائفين والقائمين** ﴾ . وفى سورة البقرة : ﴿ **والعاكفين** ﴾ لأن ذكر العاكف ههنا سبق فى قوله : ﴿ **سواء العاكف فيه والباد** ﴾ .

ومعنى : ﴿ **والقائمين والركع السجود** ﴾ المصلون . وقيل : ﴿ **القائمين** ﴾ بمعنى المقيمين وهم العاكفون ، لكن لمَّا تقدم ذكرهم عَبَّر عنهم بعبارة أخرى .

قوله تعالى : ﴿ **فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر** ﴾ كرر ، لأن الأول متصل بكلام إبراهيم وهو اعتراض ، ثم أعاده مع قوله : ﴿ **والبدن جعلناها لكم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها** ﴾ وبعده : ﴿ **وكأين من قرية أمليت لها** ﴾ خص الأول بذكر الإهلاك ، لاتصاله بقوله : ﴿ **فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم** ﴾ أى : أهلكتهم ، والثانى بالإملاء لأن قوله : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب** ﴾ دلّ على أنه لم يأتهم فى الوقت ، فحسن ذكر الإملاء .

قوله تعالى : ﴿ **وإن ما يدعون من دونه هو الباطل** ﴾ هنا ، وفى لقمان : ﴿ **من دونه الباطل** ﴾ لأن هنا وقع عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ، ولهذا أيضا زيد فى هذه السورة اللام فى قوله : ﴿ **وإن الله لهو الغنى الحميد** ﴾ . وفى لقمان : ﴿ **إن الله هو الغنى الحميد** ﴾ . إذا لم تكن سورة لقمان بهذه الصفة .

وَإنْ شِئْتَ قلت : لما تقدم فى هذه السورة ذكر الله سبحانه وتعالى ، وذكر الشيطان ، أكدهما فإنه خبر وقع بين خبرين ، ولم يتقدم فى لقمان ذكر الشيطان ، فأكد ذكر الله ، وأهمل ذكر الشيطان وهذه دقيقة .

مناسبتها لما قبلها :

ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه :

١ – إن آخر السورة قبلها وهى سورة الأنبياء كان فى أمر القيامة كقوله : ﴿ **واقترب الوعد الحق** ﴾ وقوله : ﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب** » ، وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية .

٢ – إنه قد أقيمت فى السورة السالفة الحجج الطبيعية(١) على الوحدانية ، وفى هذه السورة جعل العلم الطبيعى من براهين البعث(٢) .

٣ – فى السورة السالفة وما قبلها قصص الأنبياء وبراهينهم لأقوامهم ، وفى هذه السورة خطاب من الله للأمم الحاضرة ، وهو خطاب يسترعى السمع ويوجب علينا ولو إجمالًا أن نعرف صنع الله فى أرضه وسمائه وتدبيره خلق الأجنة والنبات والحيوان .

---

(١) وإن لم تكن مفهومة الفهم الكامل التام تأكيدًا للنزوع الفطرى المطمور فى النفس والقلب .

(٢) وهذا يعنى نصح الفكر الإيمانى وإعماله فى حياة المسلم باستمرار والدعوة للعلم الصحيح عقلا وشرعًا .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعةٍ عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكرى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ [الحج : ١ – ٢] .

المفردات :

التقوى : و(اتقوا) هنا نداء للمكلفين ودعوتهم للخشية والخوف من الله والاحتراس من كل مَكْرُوهٍ سواء كان فعلًا أو تركا بتحقيق معنى الطاعة لله وحده فى دار الدنيا .

والزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها . إشارة للتهويل والزلزلة من أشراط الساعة .

والذهول : الدَّهش الناشىء عن الهمّ والْغَمّ الكثير أشبه بالنسيان والسلو واللهو .

والمرضعة : الأُنثى حَالَ الإِرْضَاع ، والمرضع ما من شأنها أن ترضع ولو لم ترضع حال وصفها به .

بدأ الله تعالى السورة الرابعة من النصف الأول(١) من القرآن الكريم وهى سورة النساء بقوله : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا** ﴾ [النساء : ١] .

وفى هذا إشارة إلى المبدأ ، كما بدأ السورة الرابعة من النصف الثانى(١) من القرآن الكريم بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحج:١].

وفى هذا إشارة إلى المعاد ، لذا ناسب أن يأتى الخطاب إلى الناس جميعًا ، إذ جميعهم يشتركون فى المبدأ والمعاد : « **كلكم لآدم وآدم من تراب** » ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ كما أن الجميع سيبعثون : ﴿ **ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعًا** ﴾ . ﴿ **وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا** ﴾ .

---

(١) سبحان الله العظيم .. إنه الإبداع الإلهى والهندسة القرآنية الربانية .

وإذا كان ذلك كذلك فكلهم مأمورون بتقوى الله ، وهل التقوى إلا الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

وفى هذه السورة إنذار شديد بزلزلة الساعة ، وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة ، هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة قبل قيام الناس من أجداثهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسًا** ﴾ .

فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة[1] .

وقال ابن جرير الطبرى عن علقمة فى قوله : ﴿ **إن زلزلة الساعة شىء عظيم** ﴾ قال : قبل الساعة أى قبل قيامها[2] .

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى مستند من قال ذلك فى حديث الصور عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على ما فِيهِ(أى : فمه) ، شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر** » . قال أبو هريرة : يا رسول الله ، وما الصور ؟ قال : « **قرن** » . قال : فكيف هو ؟ قال : « **قرن عظيم تنفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصَّعْق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفزع فيفزع أَهْلُ السَّمٰوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاء الله ويأمره فيمدها ويطوّلها ولا يفتر (أى : لا يتوقف ولا يخفض) ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾[3] فَيُسَيِّرُ الله الجبالَ فتكون سَرابًا ، وَتُرَجُّ الأرضُ بأهلها رَجًّا ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة ﴾[4] فتكون الأرض كالسفينة الْمُوبَقَة[5] فى البحر ، تضربها الأمواج**

(١، ٢) تفسير الطبرى : جـ ١٢ ، ص ٤ ط دار الكتب المصرية .

(٣) سورة ص : الآية ١٥ .

(٤) سورة النازعات : الآيات ٦ - ٨ .

(٥) الموبقة : المحبوسة اقرأ قوله تعالى : ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ .

تكفؤها بأهلها[1] ، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح ، فيمتد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة ، حتى تأتى الأقطار ، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها ، فترجع ، ويولى الناس مدبرين ، ينادى بعضهم بعضًا ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[2] فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرا عظيمًا ، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل[3] ، ثم خُسِفَت شمسها وخُسِفَ قمرها ، وانتثرت نجومها ، ثم كشطت (أى : كشفت ورفعت) عنها » . قال رسول الله ﷺ : « **والأموات لا يعلمون بشىء مِّن ذلك** » . قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : ﴿ **ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله** ﴾ [النمل : ٨٧] .

قال : « **أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، ووقاهم الله شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ ، وآمنهم ، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه ، وهو الذى يقول : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾** [الحج : ١ - ٢] التى نحن بين أيديها فتأملون متدبرون[4] .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وَبلبال كائن يوم القيامة فِى الْعَرَصَات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث :

روى الإمام أحمد بسنده عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره ، وقد تَفَاوتَ بين أصحاب السير[5] ، رفع بهاتين الآيتين صوته :

(١) تكفأ : تقلب .

(٢) سورة غافر : الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) المهل : دردى الزيت .

(٤) الحديث رواه الطبرانى وينظر بطوله فى تفسير سورة الحج عند الطبرى (جـ ١٧ ، ص ٨٥) وابن كثير (جـ ٥ ، ص ٣٨٤) ويراجع فى تفسير سورة الأنعام .

(٥) تفاوت فى البعد .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ [الحج : ١ – ٢] .

فلما سمع أصحابه بذلك حثُّوا(١) المطى ، وعرفوا أنه عنده قول يقوله فلما دنوا حوله قال ﷺ : « أتدرون أى يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : يا آدم ابعث بعثك إلى النار . فيقول : يارب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار ، وواحد فى الجنة » . قال : فأبلس أصحابه (تحيَّروا وسكتوا) حتى ما أوضحوا بضاحكة ، فلما رأى ذلك قال : « أبشروا واعملوا فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس » قال : فسُرِّىَ عنهم(٢) ثم قال : « اعملوا وابشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير ، أو الرقمة فى ذراع الدابة »(٣) .

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية : عن أبى سعيد قال : قال النبى ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف – أراه قال – تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد : ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ » فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم . قال : قال النبى ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، ثُمَّ أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود ، وإنى لأرجو أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة . فكَبَّرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة : فكبَرنا »(٤) [رواه البخارى ومسلم والنسائى فى تفسيره] .

(١) حضُّوها والمطى جمع مطية وهى الدّابة .
(٢) زال ورفع وكشف .
(٣) ابن كثير : ط الشعب جـ ٥ ، ص ٣٨٦ .
(٤) فتح البارى : (التفسير) جـ ٨ ، ص ٤٤١ . وابن كثير : ط الشعب جـ ٥ ، ص ٣٨٧ .

وقال الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلًا » قالت عائشة : يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة : إنَّ الأَمْرَ أشدُّ من أن يهمهم ذلك » [رواه فى المسند] .

وقال الإمام أحمد عن السيدة عائشة أيضا قالت : قلت يا رسول الله : هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : « يا عائشة : أمَّا عند ثَلاثٍ فَلا : أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف ، فلا . وأما عند تطاير الكتب فإمَّا يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله ، فلا . وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ، ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمَنْ ادعى مع الله إلها آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد . قال : فينطوى عليهم ، ويرميهم فى غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أَدَقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف ، عليه كلاليب وحسك يأخذن من شاء الله ، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم ، سلم ، فناج مسلم ومخدوش مسلم ومكوّر فى النار على وجهه » [رواه فى المسند] .

ومهما يكن من أمر فإن الزلزلة واقعة لا محالة، هذا وعد الله، وكان وعد الله مفعولا .

﴿ يوم ترونها ﴾ : هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسرًا له : ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ : أى : فتشغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتى هى أشفق الناس عليه ، تدهش عنه فى حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل مرضع . وقال : ﴿ عما أرضعت ﴾ أى عن رضيعها قبل فطامه(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أى : قبل تمامه لشدة الهول .

﴿ وترى الناس سكارى ﴾ : أى من شدة الأمر الذى صارُوا فيه قد دهشت عقولهم وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى : ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٢) .

قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب

(١) من : ومهما .. حتى فطامه . منقولة من ابن كثير جـ ٥ ، ص ٣٨٩ .
(٢) ابن كثير : ط الشعب جـ ٥ ، ص ٣٨٩ .

كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ [الحج : ٣ - ٤] .

المناسبة وإجمال المعنى :

أخرج ابن أبى حاتم ، أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث ، وكان جدلا ، يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بلى وصار ترابا .

بعد أن أخبر سبحانه – فيما سلف – بأهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس إلى تقواه ، وبين أنه مع هذا التحذير الشديد ، فإنَّ كثيرًا من الناس ينكرون هذا البعث ويجادلون فى أمور الغيب بغير علم .

هذا فريق ضال من الناس يجادل فى ذات الله بأحكامه ، فمن قائل اتخذ الرحمن ولدا ، ومن قائل أن الملائكة بنات الله ، ومن منكر للبعث ، إلى غير ذلك من المذاهب الضالة والمشارب الآسنة ، وأصحاب العقول الطائشة المستهترة ، إنهم يجادلون بغير سلطان أتاهم ، لا علم ولا هدى ، إنما جهل وحيرة وضلال فحبذا لو كان الجدل بالتى هى أحسن ، ولا حبذا إذا كان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد قدر على هذا المجال الذى سلك طريق الشيطان أن يضله بالوسواس ، ويكون المصير مشئوما ، حيث يهديه إلى عذاب السعير ، فالشيطان مريدٌ عاتٍ لا يرحم : **﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾** .

قال تعالى : **﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشُدَّكُم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾** [الحج : ٥ - ٧] .

المفردات :

الريب : الشك .

وأصل النطفة : الماءُ العَذْبُ ويراد به هنا ماء الرجل وسمى نطفة لقلته .

والعلقة : القطعة الجامدة من الدم . والعلق والدم العبيط : الطرى .

المضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ (أى لا شكل فيها ولا تخطيط)[١] .

الأجل المسمى : هو حين الوضع .

الطفل : يكون للواحد والجمع .. فهو اسم جنس لمن صفته أنه طفل .

الأشد : القوة .. بمعنى نهاية القوة وكمال العقل .

أرذل العمر : ادنؤه واردؤه وأدونه . إشارة للهَرَم والخرف حتى لا يعقل .

هامدة : أى : ميتة يابسة من قولهم : جمدت الأرض إذا يبست ودرست ، وهمد الثوب : بلى .

واهتزت : أى : اهتز نباتها وتحرك .

وربت : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات .. أى ارتفعت .

زوج : أى : لون .. ونوع إشارة إلى تعدد النعم .

بهيج : أى : حسن سارّ للناظرين .

والحق : هو الثابت الذى يحق ثبوته فلا يتغير ولا يزول .. هو الله الواحد الذى يفتقر إليه كل ما عداه فهو سبحانه الحق الحقيقى المطلق .

المناسبة وإجمال المعنى :

لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم فى البعث والحشر . وذمهم على ذلك ، قضى على هذا بإثباته مِنْ وَجْهَيْن :

١ – الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه فى الآية الأخرى : **﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾** [يس : ٧٩] . وقوله : **﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ﴾** [الإسراء : ٥١] .

(١) ابن كثير : جـ ٥ ، ص ٣٩٠ .

٢ – الاستدلال بحال خلق النبات فى قوله : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ .

هذه آية انتجت خمس نتائج :

الأولى : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق** ﴾ .

الثانية : ﴿ **وأنه يحى الموتى** ﴾ .

الثالثة : ﴿ **وأنه على كل شىء قدير** ﴾ .

الرابعة : ﴿ **وأن الساعة آتية لا ريب فيها** ﴾ .

والخامسة : ﴿ **وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾ .

وفيها رد قوى وبرهان قاطع وحجة ساطعة على الذين ينكرون المعاد ، وفيهم يقول تعالى : ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كُلِّ شىء وإليه ترجعون** ﴾ [يس : ٧٧ – ٨٣] .

ففى هذا المشهد من سورة يسۤ خمسة أدلة على أن البعث حق :

أولها : ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة** ﴾ أى أن الذى قدر على الإيجاد من العدم قادر على الإعادة .

وثانيها : ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ أى أن الذى قدر على جمع الأضداد فجعل من الشجر الأخضر نارا قادرا على أن يجمع بين برودة الموت وحرارة الحياة .

وثالثها : ﴿ **أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾ [يس : ٨١] أى أن الذى قدر على خلق الكون الأكبر ، قادر على خلق الأدنى : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا**

المسىء قليلا ما تتذكرون . إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ [غافر : ٥٧ – ٥٩] .

رابع الأدلة : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ أى أن الذى سيعيدنا بعد الموت لا يعجزه شىء فأمره بالكاف والنون : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب** ﴾ ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة** ﴾ .

خامس الأدلة : ﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾ فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، هو الغنى الذى لا يفتقر إلى أحد ، القوى الذى لا يحتاج إلى معين ، عَلَى فقهر وبطن فخبر ومَلَك فقدر .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب** ﴾ أى إن وقع الشك فى نفوسكم من البعث ، فإنا خلقنا أباكم آدم من تراب كما خلقناكم أنتم من عناصر هذا التراب مثل الكربون والدهن والماغنسيوم والفوسفور والحديد والجير والكبريت والماء ثم تحول هذا التراب كما قال تعالى : ﴿ **ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾ [السجدة : ٨ – ٩] .

وإنما بدأ الخلق هنا بالتراب لأننا ستصير ترابا فى القبور فالذى قدر على أن يخلق من التراب إنسانا قادر بالأولى أن يعيد هذا الإنسان من التراب : ﴿ **وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿ **ثم من نطفة** ﴾ : وهو ما يصب فى الأرحام من ماء الرجال .

﴿ **ثم من علقة** ﴾ : وهى تلك القطعة من الدم المتجمد .

﴿ **ثم من مضغة** ﴾ : وهو مقدار ما يمضغ من اللحم وهو قطعة اللحم .

﴿ **ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة** ﴾ : وهذه المضغة قد تكون مخلقة مسواة سالمة من العيوب والنقصان تمت فيها أحوال الخلق ورسومه ، وقد تكون غير مخلقة أى غير مستوية وفيها نقص ولم يتم فيها رسوم الخلقة ، فسبحان من يصور خلقه : ﴿ **لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى** ﴾ .

وقال مجاهد : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوما وهى مضغة أرسل الله تعالى ملكا إليه فنفخ فيها الروح ، وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبيح ، وذكر وأنثى وكتب رزقها وأجلها وشقى أو سعيد . كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : **« إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح »** [رواه البخارى ومسلم فى كتاب القدر] . وروى ابن أبى حاتم وابن جرير بسندهما عن عبد الله قال : **« النطفة إذا استقرت فى الرحم جاءها ملك بكفه فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل : غير مخلقة لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دمًا ، وإن قيل : (مخلقة) ، قال : أى رب ، ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله . فيقال له : اذهب إلى أمّ الكتاب ، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة . قال : فتخلق فتعيش من أجلها وتأكل رزقها وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك المكان »** . ثم تلا عامر الشعبى : **﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾** . فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة ، وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دمًا ، وإن كانت مخلقة نكست فى الخلق(1) .

وقوله تعالى : **﴿ ثم نخرجكم طفلا ﴾** أى ضعيفا فى بدنه ، وسمعه وبصره وحواسه ، وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ، ويلطف به ، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : **﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾** أى يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر(2) .

﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ : أى فى حالة شبابه وقواه . **﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾** : وهو الشيخوخة والهَرَم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر ، ولهذا قال : **﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾** كما قال

(1،2) ابن كثير : جـ ٥ ، ص ٣٩٠ ط الشعب .

تعالى : **﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾** [الروم : ٥٤](1) .

وقوله تعالى : **﴿ وترى الأرض هامدة ﴾** : هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى القحلة التى لا نبت فيها ولا شيء(2) .

وقال السدى : ميتة . **﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾** أى فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ، وربت ، أى ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون ، من ثمار وزروع ، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها ، وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : **﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾** أى حسن المنظر طيب الريح(3) .

وقوله : **﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾** أى الخالق المدبر الفعال لما يشاء(4) .

﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ أى كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع(5) .

﴿ إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ و **﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾** .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أى كائنة لا شك فيها ولا مرية(6) .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ أى يعيدهم بعدما صاروا فى قبورهم رِمَمًا ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى : **﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يُحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾** [يس : ٧٨- ٨٠](7) .

وقال الإمام أحمد بسنده عن لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول الله : أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : **« أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليا به ؟ »** قلنا : بلى . قال : **« فالله أعظم »** . قال : قلت

(١:٧) تفسير ابن كثير : جـ ٥ ، ص ٣٩١ - ٣٩٣ ط الشعب .

يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « **أما مررت بوادى أهلك محولا** »[1] قال : بلى . قال : « **ثم مررت به يهتز خضرا ؟** » قال : بلى . قال : « **فكذلك يحيى الله الموتى وذلك آية الله فى خلقه** » [المسند : ٤/١١] .

فصـل :

الإعادة أهون من البدء ، وليس فى حق الله هين وأهون ، فكله مع القدرة الإلهية هين : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر . والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وما هو بالهزل** ﴾ . ﴿ **وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ . وقد جاءت هذه الآية الكريمة فى سياق قوله جل شأنه : ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من فى السموات والأرض كل له قانتون** ﴾ .

وللعلم كلمته فى خلق الإنسان مم خلق ؟ وكيف خلق ؟ ثم جاء إلى الدنيا .

(١) المَحْلُ : انقطاع المطر . وادٍ محل : غير عامر بالنبات والشجر .. فهو أشبه بالقفر كالأرض الجدباء .

اطوار خلق الإنسـان(*)

قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

إن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التى ترينا من أسرار الكون عجبا ، والآية المبصرة التى لا تزال تأتينا من كل شيء سببا ، ولقد قال تعالى : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شيء** ﴾ والآية الكريمة التى نحن بصددها تبحث الإنسان بحثا دقيقا إذ هو من أهم الأبحاث العلمية ، ومن أدق الحقائق والأسرار الكيميائية ، كما تبحث علم الأجنة الذى هو من أهم العلوم الطبية الحديثة .

وسنرى فيما يلى ما تتناوله الآية الكريمة من أسمى الأغراض وأدق المعانى .

ولسهولة بحث الآية نقسم شرحها إلى الأطوار التى ذكرتها وذلك استنادا على قوله تعالى فى سورة نوح: ﴿ **وقد خلقكم أطوارا** ﴾ [نوح: ١٤][1] فنبدأ بخلق الإنسان من طين ثم ننتقل إلى جميع الأطوار الأخرى من نطفة وعلقة ومضغة إلى آخر ما ذكرته الآية الكريمة، وفى أثناء ذلك سنقوم بتفسير ما يتعلق بموضوع الخلق من آيات.

طـور الطـين

عناصر الطين : قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ والطين : هو ذلك المخلوط المعروف بالتراب (الرغام) حين يمتزج بالماء ، فالإنسان بحسب الآية الشريفة خلق منهما جميعا ، فأما خلقه من التراب فقوله تعالى : ﴿ **ومن**

(*) الحمد لله الذى وفقنى لتعديل عنوان الفصل بسندى من القرآن .

(١) الطور : بمعنى المرحلة بعد المرحلة .. قال سبحانه : ﴿ **وقد خلقكم أطوارًا** ﴾ .

آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [الروم : ٢٠] . وأما خلقه من ماء فقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبًا وَصِهْرًا وكان ربك قديرا** ﴾ [الفرقان : ٥٤] . وقوله تعالى : ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلُقُ الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾ [النور : ٤٥] .

وعناصر الطين : هى التى تتكون منها القشرة الأرضية ، والعناصر المعروفة لدينا اليوم تبلغ التسعين عنصرا ، تسعة منها هى أكثرها انتشارا وتكون ٩٨٪ من القشرة الأرضية ، وهى : الأوكسجين والسليكون والألمنيوم والحديد والجير والصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم والهيدروجين ... إلخ وباقى العناصر ويكون ٢٪ منها ، وسنرى أن أجسامنا لا تتكون إلا من نفس هذه العناصر .

ويمكن تقسيم العناصر المعلومة لنا إلى قسمين كبيرين :

١ – عناصر غير معدنية : كالهيدروجين والأكسجين والكربون والأزوت والكبريت والفوسفور والكلورين والأيودين والفلورين والسليكون .

٢ – وعناصر معدنية : كالصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم (الجير) والمنجنيز والحديد والنحاس ... إلخ .

ويجب أن نبين هنا أن هذه العناصر لا توجد كلها خالصة فى القشرة الأرضية ، بل أغلبها موجود على شكل مركبات كيميائية كوجود الكلورين متحدا مع الصوديوم ليكونا ملح الطعام (كلورور الصوديوم) وكوجود الصوديوم على هيئة نترات أو كبريتات وكوجود الجير على هيئة فسفتات ... إلخ .

عناصر جسم الإنسان :

إذا نظرنا إلى جسم الإنسان لوجدناه مكونا من نفس العناصر غير المعدنية والعناصر المعدنية التى ذكرناها وهى التى تتكون منها أجسامنا ، وهى موجودة فينا على شكل مركبات عديدة غير عضوية وأخرى عضوية .

فأما المركبات غير العضوية فهى :

١ – كلورور الصوديوم وكبريتاته وكربوناته وفسفاتاته ، وأهم هذه كلها كلورور

الصوديوم ويبلغ مقداره فى الجسم ٣٪ من وزنه .

٢ – أملاح البوتاسيوم المرادفة لأملاح الصوديوم وتدخل فى تركيب الجسم بنسبة أقل من سابقتها .

٣ – وتوجد أملاح الجير بنسبة كبيرة فى العظام بشكل فسفاتات ، وتوجد كذلك فى الأنسجة المختلفة فى سوائلها ومثلها أملاح المغنسيوم ، وأملاح هاتين المادتين توجد فى الجسم كذلك على شكل كلورات وكربونات وفسفات ويوجد فلورور الجير كذلك فى الأسنان .

٤ – وأملاح الليثيوم توجد آثار منها فى الجسم .

٥ – وفى العصارة المعوية يوجد حامض الكلوردريك ، وهو مكوَّن من عنصر الكلورين والهيدروجين .

وأما المركبات العضوية المركبة للجسم فهى :

١ – البروتينات أو المواد الزلالية وهى مركبات معقدة من الكربون تحتوى بجانب الكربون على الهيدروجين والأكسجين والأزوت والكبريت ومنها ما يحتوى كذلك على الفسفور .

٢ – الدهنيات وتتركب من الكربون والهيدروجين والأكسجين .

٣ – الكربو هيدرات أو المواد النشوية أو السكرية وتتركب من عين عناصر الدهنيات ، ولكنها تخالفها فى وجود عنصرى الهيدروجين والأكسجين فيها بنسبة وجودهما فى الماء وهى (٢ : ١) .

والماء يعد من أهم المركبات غير العضوية المقيمة لكيان أجسامنا ، إذ تبلغ نسبة الماء فى الجسم ٦٦٪ من وزنه ويختلف مقدار الماء باختلاف أنسجة الجسم ، فبينما تصل نسبته فى الأسنان ١٪ ، تراها فى عضلات الجسم ٧٥٪ وفى الدم ٧٨٪ وكذلك الحال فى الحيوان . بل إن النبات يُكَوِّن الماءُ كذلك جزءًا هامًا فيه .

كيف خلق الإنسان من طين ؟

ترى مما تقدم أن المواد التى يتركب منها جسم الإنسان ، هى بعض محتويات القشرة الأرضية ، فإن قلت : إن الإنسان لا يتكون منها جميعا ، وإن هنالك من

محتويات القشرة الأرضية ما لا يدخل فى تركيبه . قلنا لك : إن الله تعالى بين ذلك بيانا وافيا فقال : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾** والسلالة معناها الخلاصة ، ويكون معنى الآية الكريمة أن الله تعالى خلق الإنسان من خلاصة خاصة من الطين ، وهى المواد التى ذكرناها ويتركب منها جسم كل منها .

ويقرب هذا المعنى إليك قوله تعالى : **﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾** وكلنا يعلم أن الفخار لا يصنع ولا يتكون إلا من طين غنىٍّ بالعناصر التى يتركب منها الإنسان وينشأ منها النبات كطمى نهر النيل مثلا ، ويكون الفخار بذلك شبيها بالطين الذى صنع منه الإنسان ، والذى سماه الله تعالى صلصالا ، وننتهز هذه الفرصة لنذكر أن النبات يشبه تمام الشبه جسم الإنسان من حيث أصل تركيبه وائتلاف عناصره فالبذرة حين توضع فى الأرض الخصبة المحتوية غالبًا على العناصر المكونة للنبات ، كالأكسجين والحديد والكلسيوم والبوتاسيوم والماجنيزيوم والهيدروجين والأزوت والكبريت والفسفور والكربون ... إلخ ثم تروى بالماء ، وبتكون الطين لا تلبث أن تجد ذلك الطمى وقد غدا جزوعا ، وفروعا ، وأوراقا ، وزهورًا وثمارًا .

إن البذرة التى وضعناها فى الأرض ، ما هى إلا بويضة نباتية ملقحة بعضو التذكير النباتى ويقابلها فى الإنسان بويضة الأنثى حين تلقح بنطفة الذكر .

وإننا إذا نظرنا إلى الإنسان ، لوجدناه جسما يتركب من أعضاء مختلفة ، وهذه الأعضاء تتركب بدورها من أنسجة خاصة ، وهذه بدورها تتركب من خلايا دقيقة مرتبة ترتيبا محكما ، منسقة تنسيقًا بديعًا . ثم إننا إذا تتبعنا الوحدة البشرية ، وهى الخلية ، نجد أن أهم محتوياتها البروتوبلازم ، والبروتوبلازم هو مادة نصف سائلة عديمة اللون ، تتركب من البروتين ومن كمية قليلة من الدهن ، وأخرى معلومة من الكربوهيدرات ، ويحتوى البروتوبلازم أثناء الحياة على بعض عناصر أخرى عالقة به ، بحيث يصبح البروتوبلازم كتلة غير حية من البروتين عند فقدها ، وهذه العناصر هى :

الأكسجين وأملاح أخرى أهمها الجير ، ودهن ، وبروتين ومركب آخر يحتوى على آثار من الحديد وهذا الأخير هو الذى يعطى البروتوبلازم القدرة على تخزين الأكسجين الذى لو عمل على إخراجه ، مات البروتوبلازم ، وأصبح كتلة غير حية من العناصر المذكورة .

– فترى من ذلك أن الوحدة البشرية هى كذلك من مادة الطين ، فإذا وضعت فى التربة الصالحة لها وهى الرحم وزودت بعناصر الطين ، كبرت ونمت وأصبحت المادة الطينية جسما ، وأعضاء ، وأنسجة وخلايا مختلفة .

قال تعالى : **﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾** [العنكبوت : ٢٠] . أى فابحثوا وتعلموا وفكروا فى كيفية خلق الإنسان من عناصر الأرض وأجزائها ، وكيف جعل الله من التربة الأرضية المخلوقات كلها ، بل كيف حول الأرض الميتة إلى كائنات حية تتنفس وتأكل وتعمل وتعيش ، ألم يقل الله تعالى : **﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾** أى حولناها إلى كائنات حية ، منها : الجنس البشرى والحيوان والنبات ، وقوله : **﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحْيَاهَا لَمُحيّ المَوتى إنه على كل شىء قدير ﴾** [فُصّلت : ٣٩] .

وكما يتكون النبات من طين الأرض ، كذلك يتكون الإنسان ، ولعل ذلك تفسير قوله تعالى : **﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتًا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجًا ﴾** .

وأما قوله تعالى : **﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾** [الصّافّات : ١١] .

فاللزوب صفة للطين ، ومعناه اللصوق والثبوت ، ولزب الطين لزق وصلب ، أى من طين متماسك ، وسلالة الطين اللازب سميت صلصالا وذلك فى قوله تعالى : **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾** [الحجر : ٢٨ – ٢٩] وإنك لترى لفظ (صلصال) هنا يقابل لفظ طين فى قوله تعالى: **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾** [صٓ: ٧١].

وقوله تعالى : **﴿ من حمإ ﴾** أى أن الصلصال متكون منه ، **﴿ الحمأ ﴾** : الطين الأسود المنتن . ومعنى ذلك : أن الطين الذى خلق منه الإنسان مر فى طور كان فيه منتنا ، أى متعفنا ، أو بعبارة أخرى علمية ، أنه قد حصل قبل تكوينه تفاعل كيمائى بين عناصره ومركباته مع وجود الماء، وكانت نتيجة ذلك اتحاد عناصر خاصة ببعضها، وخروج غازات خاصة نتيجة التفاعل، كغاز كبريتيد الهيدروجين الكريه الرائحة والنشادر وغيرها وذلك كما يحصل فى الأسمدة البلدية والرمم قبل تحويلها إلى تراب طهور لا رائحة له ولقد قال تعالى: **﴿وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام**

وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩] .

فعندما يموت المرء يبتدىء جسمه فى التحلل إلى عناصره التى ذكرناها ، وتتصاعد غازات خاصة نتيجة ذلك التحلل ، ويفقد الجسم بعض عناصر أخرى ، وفى هذه الحالة يسمى (الحمأة) وكذلك الحال إذا حرق .

وبعد ذلك يصير ترابًا ، وهو قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ . وحين يختلط التراب بالماء يصير طينا .

وأما قوله تعالى : ﴿ مسنون ﴾ مضغة للحمأة ، ومعناه (متغير) وذلك لما بيّنا من التفاعل الكيمائىّ . وقال صاحب لسان العرب : يقال هو المتغير ، وقال أبو عمرو : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ أى متغير منتن . وقال أبو الهيثم : سن الماء فهو مسنون أى متغير .

وتكون الأدوار التى مر بها الإنسان عند الخلق من طين هى : أن الله تعالى خلق الأرض بعناصرها ، ثم شاء أن يخلق الإنسان من هذه العناصر ، فجمع سلاله ، أى خلاصته منها ، وهى التى تتركب منها أجسامنا كما بينا . وهذه السلالة حدثت بتفاعلات كيمائية خاصة وهى التى تسمى بالحمأ المسنون وحين تم التفاعل أصبحت ترابا ، فخلط هذا التراب بالماء ، فغدا طينا لازبا أو صلصالا كالفخار فسوى الله تعالى هذا وهو قوله : ﴿ فإذا سويته ﴾ أى جعلته على هيئة الإنسان ، قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ . وقال : ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرًا ﴾ . وقال : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ وبعد ذلك أوجد فيه الروح وهو قوله : ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ أى خلقت فيه روحًا من عندى .

وهكذا خلق الله تعالى آدم من طين كما بينا ، وخلق منه أولاده وأحفاده وذريته بعضهم من بعض وكلهم من أصل الطين كذلك ، ثم بعث فيهم الروح والحياة ، وهو قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ . فقوله : ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ أى من الأرض كما ذكرنا . وقوله : ﴿ ومن أنفسهم ﴾ أى بعضهم من بعض عن طريق التناسل .

وقوله : ﴿ خلق الأزواج كلها ﴾ أى الإنسان والحيوان والنبات ، إذ جعلهم من ذكر وأنثى وهو كقوله : ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ . والنبات

يدخل فى ذلك إذ قال تعالى عنه : ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أى ذكر وأنثى كل له أعضاؤه الخاصة به وبعضه فيه أعضاء التذكير والتأنيث تلقح أولاها ثانيتها ، وهو ما بينه قوله جل شأنه : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ تحمل حبيبات الذكر لتضعها فى أعضاء التأنيث لتلقيحها(١) . وهذه كلها أشياء لم يكتشفها العلم إلا حديثا وذكرها القرآن الكريم .

أنبت الله تعالى فى الأرض من كل زوج كريم ، وهو عين ما قاله فى الإنسان : ﴿ وخلقكم أزواجا ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أى من الروح ، وحقا لقد عجزت عقولنا عن إدراك كنهها أو معرفة ماهيتها مع وجودها معنا أينما سرنا نحس بها ولا نستطيع تكييفها قال تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ . فسبحان ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ [السجدة : ٦ - ٧] .

طور النطفة

شكل النطفة :

قال تعالى : ﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ والنطفة هى الحيوان المنوى الذى ينشأ فى خصية الرجل ، ويبلغ طوله نحو الاثنين والخمسين ميكرونا إلى الاثنين والستين وهو مقسم إلى أربعة أقسام ، هى : الرأس والعنق والجسم والذَّنَب ، وبعد الذنب يوجد جزء يسمى بالمؤخرة ، والرأس يبلغ طوله نحو الأربعة إلى الخمسة ميكرونات وهو مدبب الطرف الأعلى ويشبه الرمح وذلك لأنه يستعمل فى قطع جزء من بويضة الأنثى لاختراقها ويكسو ثلاثة أرباع جزئه العلوى غشاء خاص يسمى بالكبود .

والعنق يقع فى أسفل الرأس ، بين هذا الأخير والجسم ، ويوجد أعلى العنق جزء يسمى (السنتريول الأمامى) .

(١) هذه واحدة من وظائف الرياح .

ويقع الجسم بين العنق والذيل ، وهو حيطى الشكل ، ويمر من الخلف بما يسمى بالأسطوانة الطرفية ، والسنتريول الخلفى موضوع عند اتصال الجسم بالعنق ، ومنه يمتد شريط خاص محاط بجراب ، والشريط يمر فى الجسم والذنب ، ويلتف حوله خيط حلزونى الشكل ، محاط بحافظة تحتوى على (كوندوريوزومى) وتسمى الحافظة (الميتاكوندر) .

والذيل يبلغ طوله من ٤١ إلى ٥٢ ميكرونا ، ويتكون من شريط محورى ، محاط بحافظة بروتوبلازمية ، والمؤخرة وهى القسم الواقع بعد الذيل لا يتكون إلا من الشريط المذكور ، ويبلغ طولها ستة ميكرونات .

ولا يخرج الحيوان المنوى عن كونه خلية واحدة ، مركبة هذا التركيب الخاص وهو كائن حى ، سريع الحركة إذ تبلغ سرعته نحو نصف ملليمتر فى الثانية الواحدة ، وتبلغ سرعة الحيوان أقصاها عند خروجه من الخصية مباشرة ، ويتحرك هذا الحيوان بواسطة حركة ذيلة الثعبانية ، وروى الأستاذ (التزمان) أن المنى المحفوظ من الضوء والبرد تعيش حيواناته مدة ٤٨ ساعة ووجدها الدكتور (كوبر) بعد ٨٤ ساعة فى منى حفظ فى زجاجة عادية غير محكمة ، ويروى (فريزر) عن (زفيفل) أنها تعيش أكثر من ثلاثة أسابيع ويقول إن عدد الحيوانات المنوية يبلغ فى الدفقة الواحدة نحو ٢٠٠ مليون حيوان .

كيف تنشأ النطفة ؟

وقبل أن أشرح كيف تنشأ الحيوانات المنوية أرانى مضطرا إلى ذكر تركيب الخصية حتى يسهل فهم ما أرمى إليه .

١ – تركيب الخصية :

فالخصية هى غدة بيضاوية الشكل تزن الواحدة منها نحو ثلاثة أرباع الأوقية وهى محاطة بحافظة ليفية متينة تسمى الصفاق الأبيض للخصية وهى معطاة بطبقة مصلية منعكسة من الطبقة الغمدية للخصية وهذه الطبقة تبرز منها زوائد أو استطالات ليفية تقسم الخصية إلى فصوص مخروطية غير منتظمة الشكل .

يمتد الصفاق من الخلف إلى داخل الغدة مكونا كتلة من النسيج الليفى تسمى حيذوم الخصية .

ويتصل بالحافة الخلفية لجسم الخصية جسم يسمى بالبربخ وهو مكون من أنبوبة واحدة معرجة تستقبل من طرف فوهتها العليا القنوات الخارجة من الخصية ويمتد عند طرفها الأسفل مكونة أسطوانة عضلية سميكة الجدر تسمى القناة الناقلة للمنى وهى التى تسمح بمرور الافرازات إلى مجرى البول .

تتكون مادة الخصية بوجه عام من قنى منوية يبلغ طولها مقدارا كبيرا إذا مددناها .

تبدأ كل قناة بقرب الصفاق وبعد تعرجات عديدة تنتهى إلى قنوات مستقيمة بعد أن تكون قد اتحدت بقناة أو أكثر من القنى المنوية وتنتهى القنوات المستقيمة إلى حيذوم الخصية وتكوّن هنالك باتحادها شبكة من القنوات المختلفة الحجم تسمى بالشبكة الخصوية والقنوات المستقيمة مبطنة من الداخل بطبقة واحدة من الخلايا المسطحة أو المكعبة وكذلك أنابيب الشبكة الخصوية .

ومن الشبكة الخصوية يخرج عدد محدود من القنوات الخارجية من الخصية تتصل بعد تعرجات بسيطة بالبربخ وهذه القنوات الخارجة مبطنة من الداخل ببشرة ذات خلايا عمودية ذات أهداب .

والبربخ يبلغ طوله من ٦ – ٨ أمتار وهو مبطن من الداخل بخلايا عمودية طويلة تحتوى كل منها على نواة بيضية الشكل .

وتوجد عند قاعدتها خلايا عديدة الزوايا أصغر حجما يحتوى كل منها على نواة كروية .

وتحتوى الخلايا العمودية على أهداب تتجه نحو داخل الأنبوبة ويلاحظ فى هذه الخلايا وجود جهاز خاص يسمى (جهاز جولجى) .

ب – تركيب القنى المنوية :

تتكون القنى المنوية من نسيج خام صفيحى التركيب وتغطى هذه الصفائح بخلايا مسطحة وتحتل مادة الصفائح خيوط مختلفة أهمها خيوط خاصة من النوع المرن ويلى الغشاء القاعدى للقنى المستوية مباشرة خلايا مكعبة تحتوى الواحدة منها على نواة ذات شكل شبكى غير منتظم ، وتمتاز هذه الخلايا بهذا الشكل فى وقت راحتها ، ولكنك قد تجدها فى بعض الأنابيب الصغيرة فى دور الانقسام ، هذه الخلايا تسمى

بالخلايا الايبيكومية تلى هذه الطبقة من الخلايا طبقة ذات خلايا أكبر حجما لكل منها نواة فى دور الانقسام وتسمى خلايا هذه الطبقة الجراثيم المنوية ، وتلى هذه الطبقة طبقة الخلايا المنوية ذات النواة الكروية البسيطة الشكل ، ونشا هدفى هذه الخلايا ذيول الحيوانات المنوية فى دور التكوين ، تستطيل خلايا هذه الطبقة بعد ذلك وتأخذ نواة كل خلية فى الاتجاه إلى أحد طرق الخلية المتجهة نحو محيط دائرة القنى ويأخذ ذيلها فى النمو كذلك ، وتكون نواة كل خلية رأس الحيوان المنوى وتتجمع الحيوانات المنوية فى مجموعات ورؤوسها متخللة الطبقة التى تليها من الخارج ، وتراها متعلقة بخلايا خاصة لتغذيتها ، وكلما زاد الحيوان المنوى فى النمو كلما برز إلى الداخل وغدا ذيله طليقا فى تجويف القنى ، وفى الوقت الذى تكون فيه مجموعة من الحيوانات المنوية فى دور التكوين نجد مجموعة أخرى من الخلايا الأيثيلومية تنقسم لتكوين جراثيم منوية .

وعندما تمنى الحيوانات المنوية التامة النمو تأخذ الجراثيم المنوية فى الانقسام لتكون خلايا منوية جديدة ، وهذه تنمو لتكون حيوانات منوية وهكذا دواليك .

ج – نشوء النطفة :

ويمكن تلخيص الأدوار التى تمر حتى تنشأ النطفة فيما يلى :

١ – تنقسم الخلية الايثيلومية إلى خليتين إحداها صغيرة تظل فى مكانها والأخرى كبيرة تنمو وتحتل مكانها فى الطبقة الداخلية الثانية لتكون جرثومة منوية أولى .

٢ – تنقسم الجرثومة المنوية الأولى إلى جرثومتين .

٣ – ثم تنقسم الجرثومة المنوية الثانية لتكون خليتين منويتين تحتوى نواة كل منها على نصف عدد الكروموزمات الأصلية .

٤ – ثم تستطيل الخلايا المنوية لتكون حيوانات منوية ، وفى هذه الحالة يظهر تجمع الخلايا التى تنمو من الخلايا الايثيلومية ، وتستطيل هذه الأجزاء لتساعد الحيوانات المنوية فى الوصول إلى تجويف القنى حيث تكون حرة طريقة .

وجدير بنا أن نذكر هنا أن جميع هذه الأطوار يمكن رؤيتها تحت المجهر فى مقطع واحد من خصية واحدة .

ويمكن تمييزها تمام التمييز ، ولا أرى داعيا لذكر الخطوات التى تمر بالخلية لتكون الحيوان المنوى التام النمو .

المنى وتركيبه :

وأطلق المفسرون لفظ المنى على النطفة ، ولكنى أرى أن القرآن الكريم فرق بين النطفة (الحيوان المنوى) والمنى قبل أن يكتشف المجهر بأكثر من أحد عشر قرنا وهو قوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى** ﴾ [سورة القيامة] .

والمنى هو ذلك السائل اللزج الذى يسبح فيه الحيوان المنوى وهو كمطبوخ النشا ، وله رائحة خاصة به ، ويرى (لاندوا) أن المنى الطبيعى يحتوى على ٨٢٪ من ماء وزلال المصل وزلالات قلوية ونيوكانيت وكيستين وكولسترين شحم فسفورى وقلويات وسلفات وكربونات وكلوريدات .

ويبلغ مقدار المنى فى الحالة العادية من درهم إلى درهمين تقريبا ، وهو عبارة عن إفراز الخصيتين والقناة الناقلة للمنى التى تبتدىء من البربخ والحويصلات المنوية والبروستاتا وغدة كوبر ويسمى إفرازها (المذى) وإفراز مخاطى من غشاء مجرى البول ، ويحتوى المنى بجانب ذلك على بلورات عديمة اللون ذات أربعة جوانب ، وترى فى المنى الطبيعى والحيوانات التى لا تزال حية ، وتوجد فيه كذلك بلورات متوازية الاضلاع ترى فى المنى بعد خروجه بزمن طويل من يومين إلى أربعة أيام .

ويرى (سريز) أنها أجسام فسفاتية مع قاعدة من المركبات العضوية .

يصل إفراز الخصية ومعه الحيوانات المنوية من القنى المنوية إلى القنوات المستقيمة إلى الشبكة الخصوية إلى القنوات الخارجية إلى البربخ ومن البربخ يخرج الافراز إلى القناة الناقلة للمنى فتصعد إلى الصفن ثم إلى الحوض العظمى وتصب القناة الناقلة إلى الحويصلة المنوية أسفل المثانة ولكل منها انقباضات خاصة لدفع السائل المنوى عند الوطء .

والبروستاتا وهى غدة تقع أسفل المثانة تفرز سائلا لزجا لتخفيف الافراز المخزون فى الحويصلتين المنويتين ولتشجيع الحيوانات المنوية على الحركة ، وتصب فتحات الحويصلتين والبروستاتا فى الجهة الخلفية لمجرى البول .

وهكذا ترى وجوب التفرقة بين الحيوان المنوى والسائل المنوى .

وقوله تعالى : ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى** ﴾ [القيامة : ٣٧] بيان ظاهر لذلك ، إذ أن النطفة حسب الآية الكريمة هى قطعا خلاف المنى ، وهى كقولك : أخرجت السمكة من البحر ، والسمكة لا علاقة لها به إلا أنها تسبح فيه كما تسبح الحيوانات المنوية فى السائل المنوى .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى** ﴾ [النجم : ٤٥ – ٤٦] أى تخرج مع المنى ، ولعله من البديهى بعدما قدمنا أن الإنسان لا يخلق من السائل الذى بيناه ، بل يخلق من الحيوان المنوى الذى سماه تعالى نطفة ، قال تعالى : ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره** ﴾ [عبس : ١٧ – ١٩] .

وأما الآية الكريمة التى تشمل السائل المنوى والحيوانات المنوية جميعا ، فهى قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** ﴾ [الواقعة : ٥٨ – ٥٩] و(ما) للجماد ذكرها الله تعالى وأطلقها على المنى والحيوانات المنوية بتغليب السائل لأنه هو الظاهر : ﴿ **قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار** ﴾ [الرعد : ١٦] .

قوله تعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾ [الإنسان : ٢] .

وأما قوله تعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾ فليس معناه كما قال المفسرون ، أخلاط ، أى من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين ، أو كما قال صاحب القاموس المحيط : أو نطفة أمشاج مختلطة بماء المرأة ودمها ، بل إن معنى قوله تعالى : ﴿ **من نطفة أمشاج** ﴾ أى أن النطفة ولو أنها بسيطة الشكل الظاهرى ، لكنها مركبة تركيبا محكمًا كما بينا آنفا ، وتحتوى على عناصر ومركبات وأخلاط خاصة هى التى سماها الله تعالى : ﴿ **أمشاج** ﴾ وأرانى هنا مضطرا أن أضرب مثلا بذلك فأقول : إن المادة الأساسية فى الخلية وهى السيتوبلازم تحتوى على بروتينات (زلاليات) وكربوهيدرات (نشويات وسكاكر) وجليكوجين ودهن وليبيد ، وتحتوى بجانب ذلك على أملاح غير عضوية وتوجد هذه العناصر مع الماء ، ويبلغ مقدار الماء فى مركبات الخلية من ٥٠ – ٩٠ فى المائة .

والخلية ذات جدار ونواة ونوية ، ويوجد فيها بجانب ذلك سنتربول والجسم المركزى

للخلية وجهاز جولوجى ولنتكلم عن أهم هذه المحتويات أو الأخلاط باختصار حتى تسهل معرفتها :

السنتربول : هذا الجسم تحتوى عليه كل خلية قادرة على الانقسام الميتوسى الخاص بخياط الخلية ، ويقع بجانب نواة الخلية الدائرية أو عديدة الزوايا ، ويقع بين النواة وجدار الخلية فى الخلايا العمودية .

وينقسم هذا الجسم إلى قسمين عندما تبدأ الخلية فى الانقسام ويتجه كل قسم منها إلى أحد خطيها .

ويخرج عدد من الخيوط الدقيقة من كل قسم ، ويمتد نحو خط استواء النواة المنقسمة حيث يقابل الخيوط الأخرى المنبعثة من الجزء المقابل فيكونان مغزلا عديم اللون تتصل به الكروموزومات المنقسمة للنواة والكروموزومات هى الأجسام الملونة فى النواة .

ويختلف السيتوبلازم المحيط بالسنتربول عن غيره ، ويسمى الجسم المركزى للخلية .

ولم يشاهد السنتريول فى خلايا النباتات العليا ولكنها تحتوى على الجسم المركزى للخلية .

الميتوكوندريا :

وهى أجسام تشبه القضبان الصغيرة أو الخيوط ، وتوجد فى جميع الخلايا النباتية والحيوانية والأجسام الخيطية إذ منها تنقسم وتتحد ثانيا .

وتكون هذه الأجسام مجموعات فى الخلايا المستطيلة العمودية . تقع كل منها فى أحد جوانب الخلية وتتركب هذه الأجسام من مواد بروتينية وليبيد وجلوتايثون ، وتلعب هذه الأجسام دورا كبيرا فى تكوين بعض المركبات والمواد الخاصة فى الخلية كالخمائر التى توجد فى سيتوبلازم كثير من الخلايا .

جهاز جولوجى : هذا الجهاز لا يمكن تمييزه فى الخلية الحية ولكنه يظهر فى الخلايا المصبوغة المثبتة ونجده فى الخلايا الدائرية والعديدة الخلايا محيطا بالنواة والخلايا المستطيلة والمكعبة نجده فى أحد الجوانب غالبا .

وليس هذا الجهاز صلبا ولكنه غروى القوام وقد نجده فى بعض الحالات على شكل حبيبات صغيرة مقشرة ويتركب هذا الجهاز كالميتوكوندريا من بروتين وليبيد وتختص عملهما ببناء الخلية ، ويتغيران شكلا ووضعا فى الخلايا التى تفرز إفرازات خاصة ، ويرى (ليم وما) أن مادة الميتاكوندريا تستهلك فى تكوين إفرازات خاصة تعطى زيموجين وتطلق الليبيد حرا فى الخلية .

النواة :

والنواة تحاط بغشاء خاص وهى حويصلية الشكل ومحتويات هذه الحويصلة تبدو كسائل متماثل يسمى كاريوبلازم ، وتحتوى النواة على جسم صغير يسمى بالنوية وفى نواة الخلية يمكن رؤية شبكة متماسكة متصلة الأطراف .

وتقع النوية عند ملتقى الخيوط الشبكية فتثبتها مكانها ولكنها تغدو حرة طليقة فى الخلايا التى ليست فيها هذه الشبكية .

وللنواة عمل كبير فى الخلية خاص بتغذيتها وافرازها وسائر وظائفها الكيمائية ، وفى النواة مادة خاصة تسمى كروماتين وهى الجزء المتخصص (الميال للون) فى الخلية ويحتوى كروماتين النواة على الحامض النووى المتحد بالبروتينات بنسب خاصة مكونا النيوكلين والنيو كليوبروتين ، وتحتوى النواة كذلك على الليبيد وكمية من الكلسيوم (الجير) .

وتوجد فى النواة كذلك شبكة دقيقة تسمى شبكة اللينيت ، يقال أنها لا توجد إلا فى الخلية الميتة ، ولا تجد الكروماتين فى بعض الخلايا أثناء راحتها على شكل شبكة بل تجده على شكل قضبان صغيرة أو خيوط على شكل شلة أو خصلة تشاهد غالبا عند ابتداء انقسام النواة .

تسمى هذه الخصلة عند اتصالها ببعضها كروموزومات ويمكن عدها فى الخلية بسهولة ، ويختلف عددها فى الحيوان عنه فى النبات ، والعدد كذلك خاص بالنسبة لكل خلية نوع من الأنواع .

ويبلغ عدد خيوط الكروموزومات فى الإنسان ٤٨ (أى ٢٤ زوج منها) فى كل خلية . وفى الخلية المذكرة يوجد كروموزوم واحد من هذه غير زوجى يسمى كروموزوم الجنس ويقول البعض أن كروموزوم الجنس يوجد كذلك مثنى .

ووجد (تاج كمب عام ١٩٢٨) أن عدد الكروموزومات فى الخلية الجنينية الآدمية ٤٨ تختلف فى الطول من ١ - ٨ ميكرونات وتختلف فى السمك من نصف ميكروم إلى ميكروم واحد .

ووجدت الكروموزمات أنها مكونة من حبيبات صغيرة تسمى كروموميرز مرتبة فى صفوف مثنى مثنى أو فرادى فرادى وتتجمع الكروموزومات فى النواة لتكون كتلة صلبة من الكروماتين تحمل النوية فى حال وجودها .

ويمكن رؤية ذلك فى نواة الحيوان المنوى حين يخترق غشاء البويضة ممثلا خلية عادية الشكل .

ومن المقطوع به علميا أن الكروموزومات فى الحيوان المنوى والبويضة هى التى تحمل صفات المورث وتنقلها إلى الذرية .

وتجد كل خلية من هذين تحمل نصف عدد الكروموزومات الأصلية ، فلذلك تجدها فى الأصل ٢٤ وعندما يحصل تلقيح البويضة لتكوين الجنين تجد فى هذا الأخير العدد الأصلى للكروموزومات .

وكلما انقسمت الخلية الملقحة بعد ذلك أعطت كل خلية ناتجة من الانقسام عدد الكروموزومات الأصلية حاملة صفات الوالدين لكل خلية من خلايا جسم النشء الناتج .

وتتكون الكروموزمات من حبيبات غير منظورة بالمجهر هى الحوامل للصفات التى تنقل إلى النسل والتى تتوقف عليها الوراثة .

النوية :

والنوية جسم مستدير الشكل يوجد واحد أو اثنان منه فى الخلية الواحدة ، وهى نوعان يمكن تمييزهما بطريق الأصباغ ، فأحدها يصبغ بالأصباغ القاعدية ويستهلك هذا النوع فى تكوين بعض مادة الكروموزومات أثناء انقسام الخلية ، والنوع الآخر يأخذ الأصباغ الحامضية ، ويختفى هذا النوع كذلك أثناء انقسام الخلية ، ولكنه لا يدخل فى الكروموزومات ، ويسمى النوع كريوزوم ، والثانى يسمى بلازموزوم .

ويمكن رؤية النوية وهى تتحرك فى الخلية الحية ، وتحتوى النويتان على حبيبات خاصة تسمى نيو كليين ولا تختفى أثناء الانقسام .

من هذا يتضح معنى قوله تعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾ [الإنسان : ٢] أى من نطفة مركبة من الأخلاط التى ذكرناها ، وبجانب ذلك فإن (أمشاج) صفة للنطفة ، وقد قدمنا أن النطفة هى الحيوان المنوى وأثبتنا ذلك آنفا ، فلا دليل أو سند علِميٌّ إذًا لذكر ماء المرأة أو بويضتها فى هذا الموضع من الآية الكريمة .

الرحم

قال تعالى : ﴿ **ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين** ﴾ والقرار : المستقر ، والمراد الرحم ، وسترى فيما يلى كيف سمى الله تعالى الرحم بالقرار المكين ، وكيف جعله موطنا للجنين ، وكيف هيأه لهذا الاستيطان ؟ فلقد شاء الله تعالى أن يجعل من الذكر والأنثى وسيلة لإيجاد بنى آدم استبقاءً للنوع وشاء سبحانه أن يمر الإنسان بطور خاص من أطوار حياته الدنيا يكون فيه جنينا ينمو فى مكان هادىء آمن يتناسب وحالته الثانية ، فجعل للأنثى رحما وزوده بكل وسائل الراحة والاطمئنان ، ووضعه فى أحسن مكانٌ وأحاطه بأركان عظيمة وأربطة مفصلية متينة حتى يصبح بعيدا عن جميع المؤثرات الخارجية .

والرحم يقع خلف المثانة وأمام المستقيم وهو كيس عضلى كمثرى الشكل يبلغ طوله سبعة سنتيمترات وعرضه خمسة سنتيمترات وسمكه نحو سنتيمترين ونصف .

وينقسم الرحم إلى ثلاثة أقسام ، فأما الأول فيسمى بالقاع وهو الجزء العلوى منه ، ويتجه نحو الأمام ، والثانى وهو جسم الرحم وله سطح محدب خاصة من الناحية الخلفية وهو ضيق من الجهة السفلية حيث يتصل بالجزء الثالث وهو العنق .

ويتكون جسم الرحم من نسيج عضلى غير إرادى سميك يمكن تقسيمه إلى ثلاثة طبقات :

فالطبقتان الخارجية والداخلية رقيقتان وبعض أليافها مرتبة طوليا والبعض الآخر دائريا .

والطبقة الوسطى سميكة ، وأليافها تأخذ اتجاهات مختلفة ، وتحتوى هذه الطبقة على أكبر الأوعية الدموية ويمتد بعض ألياف الطبقة الداخلية إلى داخل أجزاء الغشاء المخاطى المبطن للرحم .

ويتكون هذا الأخير من نسيج خام يحتوى على عدد كبير من الخلايا ذات الشكل المغزلى ، ويحده من الداخل فى بعض الأجزاء بشرة هدبية ، ويحتوى الغشاء المخاطى على

غدد إسطوانية طويلة بسيطة الشكل تتخذ شكلا منحنيا معرجا فى مروروها وسط هذا الغشاء وله إفراز قلوى خاص .

ويغطى الرحم من الخارج الغشاء البريتونى ، وهذا يمتد من الخلف حول القاع والجسم والجزء العنقى المطل على المهبل حتى يصل إلى التجويف المهبلى الخلفى .

وأما عنق الرحم فيبلغ طوله نحو سنتيمترين ونصف ، وجزؤه الأسفل بارز فى المهبل .

والعنق الظاهر مغطى كذلك بغشاء مخاطى وتفتح فيه قنوات كثيرة أكثر تعقيدا من غدد الرحم : تحدها من الداخل خلايا عمودية تفرز مادة مخاطية .

وبقرب العنق تصبح البشرة المخاطية عديمة الأهداب ، وتمتد طبقاتها عند حافته .

والغشاء المخاطى يحتوى على عدد كبير من الأوعية الدموية الكبيرة والأوعية الليمفاوية .

والرحم هو المكان المعد لحفظ الجنين ، وهو مهيأ لجميع وسائل التغذية ، ومحصن تحصينا محكما ، ولقد جعل الله تعالى لحفظه صندوقا عظيما متينا هو الحوض .

والحوض عبارة عن حزام عظيم يقع معترضا فى نهاية العمود الفقرى محمولا على عظمتى الفجذين ويتركب من أربعة عظام ، هى العظمين اللذان لا اسم لهما والفخذ والعصعص ويتركب كل من العظمين اللذين لا اسم لهما من الحرقفة والورك والعانة والعظم الأول أكبرها ويقع على الجانبين ، والثانى يتلو الحرقفة فى الحجم ويؤلف الجزء الخلفى من أرضية الحوض ، والعظم الثالث أصغرها ويكون مقدمة الحوض .

والعظام الأربعة الأولى تتصل ببعضها اتصالا محكمًا ، فكل من العظمين اللذين لا اسم لهما يتصل عند المفاصل الفخذية الحرقفية ، ويتصل الفخذ بآخر عظمة قطنية عند المفصل الفخذى القطنى ، ويتصل بالعظمين اللذين لا اسم لهما عند المفاصل الفخذية الحرقفية وبالعصعص عند المفصل الفخذى العصعص ، والعصعص لا يتصل إلا بالفخذ .

والمفاصل المذكورة صلبة عادة ، ولكن من حكمة الله تعالى أنها عند أواخر الحمل تلين أربطتها ، فتسمع بحركات بسيطة لها أهمية خاصة لا يستهان بها ، ولا يستغنى عنها وقت الولادة ، فالفخذ يدور إلى الأمام والخلف ، كما لو كان محوره هو المفصل الفخذى

الحرقفى وعند الولادة عند نزول رأس الجنين يسقط الأخير على أعلى الفخذ فيدفعه إلى الخلف قليلا ، وبمجرد نزول الرأس يرجع أعلى الفخذ إلى مكانه الأول ، وبعد ذلك يتحرك إلى الأمام قليلا وتنسحب رأس الجنين القطع السفلى عند نزوها إلى الخلف ، ويستطيع العصعص هو الآخر التحرك إلى الخلف على المفصل العجزى العصعصى وبذلك تكبر دائرة الخروج الأمامية الخلفية مما يقرب من ثلاثة أرباع البوصة ، هذا بجانب ما يستطيعه عظم العانة من الانفصال عند ملتقاهما .

ولا يخفى أن المفاصل تربطها جميعا أربطة خاصة متينة التركيب محكمة الوضع ، تجعل من عظام الحوض المختلفة صندوقا محكما ذا أسقف أرضية وجدران ، ولا يفوتنى أن أذكر أن هنالك الرباط العجزى الوركى الذى هو عبارة عن غشاء ليفى مفرطح يتم به التجويف الحوضى من كلا الجانبين .

وهكذا جهز سبحانه وتعالى رحم المرأة بكافة أسباب الراحة والوقاية وأعده لحفظ الجنين من أول نشأته من نطفة إلى أن يلفظه الرحم فى تاسع شهر قمرى من ابتداء تكوينه ، ولو شئت أن أذكر الوسائل التى أعدها سبحانه وتعالى لتغذية الجنين وحفظ حياته ، لطال الشرح ، ولكنى أظن أننى بما ذكرت أعطيت القارىء فكرة عامة وافية وصورة دقيقة مصغرة لما عناه الخالق الكريم بقوله : ﴿ **فى قرار مكين** ﴾[1] قال تعالى : ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم** ﴾ [النجم : ٣٢] .

(١) وهل يكون القرار مكينا إلا بالأمن والغذاء ، والشفا وكل ما هو من قوام الحياة حتى يبلغ الأجل المسمى . فسبحان الله العظيم .

طـور العلقـة

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ وأريد أن أقف قليلا بجانب (ثم) لترى مثالا من بلاغة القرآن الكريم ودقة بيانه فى وضعه هذا الحرف موضعا يؤدى به المعنى الطبى الصحيح الذى تشير إليه الآية الكريمة ، فإن (ثم) هى حرف العطف الوحيد الذى يستطيع أن يؤدى معنى هذا الطور من الانتقال فى تكوين الإنسان ، وهى تدل على الترتيب مع التَّراخِى ، بخلاف الواو مثلا وبخلاف الفاء فى قوله : ﴿ **فخلقنا العلقة مضغة** ﴾ كما سيأتى ، ولعل القارىء اللبيب قد فهم سر استعمال (ثم) فى خلق الإنسان من نطفة بعد خلقه من الطين فى قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناه نطفة** ﴾ لطول الفترة ما بين طور الخلق من طين وخلق الإنسان من نطفة .. تأمل قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ [الروم : ٢٠] وكذلك ذكر الله تعالى (ثم) بعد النطفة لطول الفترة بين الإنسان وهو نطفة فى خصية الرجل حتى يصبح علقة فى رحم المرأة كما سيأتى .

والعلقة لفظ دقيق يبين ذلك الطور الذى يمر به الإنسان عند تلقيح الحيوان المنوى لبويضة الأنثى ، وليست العلقة دما متجمداً كما قال جميع السادة المفسرين ، قال المفسرون ذلك ونحا نحوهم المترجمون أمثال (سافارى) و(جورج سيل) و(رودول) وغيرهم .

وكذلك فعل علماء اللغة ، فقد جاء فى المصباح المنير عند الكلام عن العلقة قوله :

والعلقة المنى ينتقل بعد طوره فيصير دما غليظا متجمدًا ثم تنتقل طورا آخر فيصير لحمًا وهو المضغة .

والعلقة ليست دمًا متجمدًا وما سميت علقة إلا للعلاقة بين النطفة وبويضة الأنثى عند التلقيح .

يقال فى اللغة : علقت ظفرى بالشىء ، بالألف ، أنشبته وعلقت الشىء بغيره ، وأعلقته بالتشديد والألف متعلق وعلق الوحش بالحبالة علوقا تعوق ومنه قيل : علق

الخصم خصمه وتعلق به وعلق الشوك بالثوب علقا وتعلق به إذا أنشب به واستمسك [المصباح المنير] .

وهكذا يفعل الحيوان المنوى مع بويضة الأنثى ، فحيث يندفع إلى جهاز المرأة التناسلى يقابل البويضة التامة النمو فيعلق وينشب بها ويستمسك ، وهذا هو تلقيح الرجل للمرأة أو إيصال الحيوان المنوى للرجل إلى بويضة الأنثى ليعلق بها وليصير علقة ، ولذلك يقال فى اللغة : علقت المرأة أى حبلت [القاموس المحيط] .

(أ) بويضة الأنثى :

الإشارة إلى البويضة فى القرآن : ولا يحسب أحد أن الدين الإسلامى لم يذكر البويضة ، وما كان القرآن ليهملها ، وهى شرط أساسى فى تكوين الجنين ، ولذلك ذكرها فى الموضع المناسب لها فى طور العلقة ، وفى ذلك دليل كاف على أن للمرأة نصيبا فى تكوين الجنين وأن لها بويضة تقابل الحيوان المنوى للرجل .

(ب) تركيب المبيض :

وبويضة الأنثى عبارة عن خلية كروية الشكل يبلغ قطرها نحو الاثنين من العشرة من المليمتر ، وتنشأ فى مبيض المرأة وتفرز منه .

وأرانى قبل أن أشرح البويضة مضطرًا إلى ذكر شىء عن التشريح الدقيق لمبيض المرأة حتى تسهل معرفة أصل البويضة معرفة كاملة .

فالمبيض عضو صغير صلب يتكون معظمه من نسيج أساسى ليفى وخلايا مغزلية وتنشر فى النسيج الأساسى حويصلات صغيرة بأحجام مختلفة أصغرها يقع بجانب حافة المبيض ويليها الأكبر فى الحجم ، ولكنها كلما كبرت اتجهت نحو الحافة ثانيا .

هذه الحويصلات الصغيرة تسمى حويصلات جراف ، ولكل منها غلاف خارجى تحت الأوعية الدموية ، يتكون من الخارج من نسيج خام مستمد من النسيج الأساسى ، وفيه من الداخل طبقة تحتوى على خلايا كبيرة الحجم .

وتحتوى كل حويصلة على بويضة (أو بويضتين أو أكثر) وبشرة مخاطية ، وفى الحويصلات الصغرى تجد البويضة صغيرة الحجم ، والبشرة المخاطية مكونة من طبقة واحدة ذات خلايا مسطحة ، فإذا كبرت الحويصلة عن ذلك غدت البشرة المخاطية

من طبقتين من الخلايا العمودية الشكل ، وتجد فى الحويصلات الأكبر طبقات متعددة من الخلايا المذكورة ، ويبتدىء تجمع سائل خاص بين الطبقات فى مكان واحد .

ويزيد مقدار السائل فى الحويصلات الكبيرة فتكبر فى الحجم شيئا فشيئا ، وتزيد صلابتها وينتهى الأمر ببروزها من المبيض وانفجارها وخروج السائل الحويصلى والبويضة منها ويعزى انقباض الحويصلة وانفجارها إلى وجود عضلات غير إرادية فى جدار حويصلات جراف ، وأما الحويصلة الفارغة فتلتئم فى المبيض وتسمى بعد ذلك بالجسم الأصفر .

تركيب البويضة :

والبويضة عبارة عن خلية كروية الشكل ، يبلغ قطرها نحو الاثنين من العشرة من المليمتر وتقع البويضة فى الغالب بعيدة عن مركز حويصلة جراف ، وتحاط كل بويضة تامة النمو كما هو الحال فى حويصلات جراف الكبرى بجدار شفاف سميك يحفظ من الداخل مادة السيتوبلازم الخاصة بالبويضة وتحتوى هذه المادة على بضعة محتويات خاصة كحبيبات دهنية وحبيبات مادة البيض الصفراء .

وتوجد فى السيتوبلازم بجانب ذلك نواة البويضة وتسمى حويصلة النمو ، وهى مستديرة الشكل كبيرة الحجم نسبيا ، تحتوى على نوية تسمى نقطة النمو .

وتتخلل جدار البويضة فتحات دقيقة تمر فيها بعض خيوط مستمدة من خلايا البشرة المخاطية التى تجاورها مباشرة .

(د) قناة فالوب :

وهنالك قناة تصل الرحم بالمبيض تسمى قناة فالوب ، وتفتح بقرب المبيض وتتصل به بواسطة بروز فيها ، فيصل واحد من هذه البروز أو اثنان منها بالمبيض مباشرة اتصالا خاصًا . ويحتوى جهاز الأنثى على قناتين تنتهى كل منها فى الرحم ويفتح فى الزاوية العليا منه .

وقناة فالوب مبطنة من الداخل بغشاء مخاطى تحت الأوعية المعوية ، وهو الغشاء مغطى بطبقة من الخلايا ذات الأهداب ، وتختفى هذه الأهداب بعد سن اليأس وهذه الطبقة فيها ثنيات طولية عديدة يتخللها كثير من الانخفاضات .

ويغطى القناة من الخارج غشاء مصلى عليه من الداخل طبقة من ألياف العضلات غير الإرادية تليها ألياف عضلية دائرية الشكل .

تلقيح البويضة :

التلقيح هو علوق الحيوان المنوى ببويضة الأنثى التامة النمو ، ويتم هذا التلقيح غالبا فى الجزء الأعلى من قناة فالوب حيث يخترق الحيوان غشاء البويضة الخارجى قاطعا هذا الغشاء بوساطة حافته الحادة التى فى قلنسوته .

وفى أثناء ذلك تجد البويضة كذلك تسعى إلى الحيوان ويتمثل هذا بروز جزء قمعى الشكل من مادة البويضة داخل الغشاء الخارجى ، ويسمى هذا البروز القمعى (مخروط الجاذبية) .

ومكان هذا البروز هو الجزء الذى يقابل رأس الحيوان عند دخوله مباشرة ، يستمسك بعد ذلك الرأس بهذا البروز ويدخل فيه ، وربما دخل جزء من الجسم كذلك ، وينفصل باقى الحيوان مع الذيل والمؤخرة ، ولا تدخل هذه الأشياء فى التلقيح وقد تمتصها البويضة وتهضمها فتتلاشى فيها .

عند ذلك يتحول الجزء الذى يدخل من الحيوان فى البويضة إلى نواة تسمى (النواة الأولية المذكرة) وتكون هذه النواة مصحوبة بمخروطها وسنتروزومها وعندما يصبح تكوين النواة ظاهرا تماما تحف حولها حبيبات السيتوبلازم المحيطة بها . وتركب حولها فتظهر كأنها خيوط من الأشعة منبعثة منها وكأن للنواة تأثيرا كليا عليها ، وبعد ذلك تأخذ النواة فى الاتجاه إلى داخل البويضة ، وعندما تصل النواة الأولية المذكرة عند النواة الأولية المؤنثة يبدو على الثانية نشاط غير عادى ، وتظهر عليها تغيرات خاصة وتأخذ فى التحرك لتلتقى بالنواة المذكرة .

وبعد ذلك تقف كل نواة فى مقابل النواة الثانية ، ثم يندمجان جميعا ليكونان نواة واحدة هى (النواة الأولى للانقسام) وهذه النواة تصحبها سنتروزومان يقف كل منهما فى مواجهة الآخر على الخط الاستوائى للنواة المحصورة بينهما .

وهذان السنتروزومان ناشئان من سنتروزوم النواة المذكرة الأولى الذى ينقسم عندما تندمج النواتان الأولتان .

توضيح معنى العلقة :

قال تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون** ﴾ [غافر : ٦٧] .

وهذه الآية الكريمة تبين لنا أهم هذه الأطوار فى خلق الإنسان ، و(ثم) فى هذه الآية الكريمة توحى إلينا معنى دقيقا يؤيد ما نرمى إليه من تفسير النطفة والعلقة ، فلقد ذكر الله تعالى التراب وهو أصل النشء ، ثم ذكر طورا يبعد كثيرا من وقت الخلق من الطين وهو طور النطفة فى الرجل ، ثم ذكر العلقة وهو الطور الذى لا يتحقق إلا عندما يقرب الذكر الأنثى .

ولم يذكر الله تعالى المضغة هنا لأنها تنشأ بعد العلقة مباشرة فى الرحم كما سيأتى، فلا تذكر فيها (ثم) بل تذكر الفاء التى تدل على التعقيب بغير مهملة كقوله تعالى: ﴿ **فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما** ﴾ [المؤمنون: ١٤].

واستعمل الله تعالى (ثم) بعد هذه الفقرة من الآية فى الفقرة التالية لها فقال : ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ [المؤمنون : ١٤] وهى كقوله : ﴿ **ثم يخرجكم طفلا** ﴾ وذكر (ثم) هنا ، لأن الخروج هو الانفصال عن الرحم وحياة الجنين فى الرحم مختلفة كل الاختلاف لحياته فى الخارج ، وهو طور هام من أطوار الإنسان .

وأما قوله : ﴿ **ثم لتبلغوا أشدكم** ﴾ فلأن طور البلوغ مخالف كل المخالفة لطور الطفولة ، ومثله قوله : ﴿ **ثم لتكونوا شيوخا** ﴾ فحالة الشاب غير حالة الشيخ وهكذا ذكر الله تعالى أهم الأطوار الظاهرة فى خلق الإنسان .

ولو كان طور النطفة فى الرحم لقال جل شأنه : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين فخلقنا النطفة علقة** ﴾ ولكنه قال : ﴿ **ثم خلقنا النطفة علقة** ﴾ ليبين أن النطفة فى مكان آخر غير الرحم .. على الأقل مرحليا .

وإن هنالك فترة كبيرة تمر قبل أن يصل الحيوان المنوى إلى بويضة الأنثى ليلقحها .

والطور الذى يلقح فيه الذكر الأنثى هو طور الحمل ، وهو طور كبير الأهمية لا يمكن أن يغفله الدين ولذلك قال تعالى : ﴿ **ثم من علقة** ﴾ وقال : ﴿ **ثم خلقنا النطفة**

علقة ﴾ أى أن الحيوان المنوى علق بالبويضة واستمسك بها ، فعلقت المرأة أى حبلت كما قدمنا .

وقوله تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ يؤيد ذلك أيضا لأن الإنسان يخلق من اتحاد الحيوان المنوى مع بويضة الأنثى أى يخلق من البويضة الملقحة .

قال تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق** ﴾ [العلق : ١ - ٢] أى خلق الإنسان عن طريق الزواج بين الرجل والمرأة ، وهو أهم طور فى حياة الإنسان ، فاقتضى ذلك أن يقتصر الله تعالى على ذكره فى هذا المقام ، وهو أبلغ تعبيرا فى هذا الموضع ، وأكثر تبيانا لخلق الإنسان بطريق التناسل .

ويؤيد ما ذهبنا إليه كذلك قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا** ﴾ [فاطر : ١١] أى زوجكم ، وطور التزاوج هو طور العلقة لأن التزاوج هو علوق الحيوان المنوى بالبويضة ، تأمل قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ [فاطر : ١١] فهنا يتضح لك معنى الزواج ، وهو الحمل ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وما تحمل من أنثى** ﴾ والحمل هو التلقيح وهو طور العلقة .

بل تأمل قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة** ﴾ وقارن بين هذه الآية والآية المشار إليها وهى : ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا** ﴾ ألا ترى إنك تستطيع أن تضع ﴿ **ثم من علقة** ﴾ مكان ﴿ **ثم جعلكم أزواجا** ﴾ من غير أن يختل المعنى أو يضطرب الكلام .

وأما قوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٣٩] فيثبت كذلك ما ذهبنا إليه .

فإن قوله تعالى : ﴿ **ثم كان علقة** ﴾ يدل على أن النطفة تكون فى الرجل فى خصيتيه - كما قدمنا - ولا ينشأ منها الجنين مطلقا إلا إذا وقع اتصال بين الرجل والمرأة ، وتصادف حصول التلقيح فعلا ، هذا ما ترمى إليه (ثم) فى هذا الموضع ، ونجد الفرق جليا بين استعمال هذا الحرف هنا واستعمال الفاء فى قوله جل شأنه : ﴿ **فخلق**

فسوى ﴾ أى أنه بعد وجود العلقة يبدأ الانقسام المباشر للبويضة الملقحة بغير مهملة ، وفى مكان واحد هو الجهاز التناسلى للمرأة .

وأما الفاء فى قوله تعالى : ﴿ **فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ فتدل على أن الجنين يكون ذكرًا أو أنثى أثناء تطوُّره فى الرَّحِم قبل الوضع ، وتستعمل (ثم) بعد خروجه طفلا ، كقوله تعالى : ﴿ **ثم يخرجكم طفلا** ﴾ كما سبق ذكره .

قوله تعالى: ﴿ **فمستقر ومستودع** ﴾. قال تبارك وتعالى: ﴿ **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾ [الأنعام: ٩٨].

وأرى فى هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من والديه بطريق التناسل ، وقوله : ﴿ **من نفس واحدة** ﴾ أى باعتبار أن الوالدين نفس واحدة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ [الروم : ٢١] .

وأما قوله تعالى : ﴿ **فمستقر ومستودع** ﴾ فأحد الجنسين مستقر ، والآخر مستودع ، أى أن أحدهما يكون مستقرًا للنطفة التى ينشأ منها الإنسان ، والآخر مستودع لها ، وسمى الذكر مستقرًا لأن النطفة تستقر فيه فى أنثييه وبطريق أدق من ذلك تكون الخصية هى المستقر ، ويكون الرحم هو المستودع .

فيكون معنى الآية الكريمة : أن الله تعالى هو الذى خلقنا ﴿ **من نفس واحدة** ﴾ أى من ذكر وأنثى متزاوجين ، فهما كنفس واحدة ، أحدهما تستقر فيه الحيوانات المنوية فى أنثييه ، والآخر تستودع فيه هذه الحيوانات بتلقيحها للبويضة فينشأ النسل .

بل أقول أبعد من ذلك : أن النفس الواحدة هى البويضة الملقحة ، فقوله : ﴿ **أنشأكم من نفس واحدة** ﴾ أى من بويضة ملقحة بالنطفة ، أى أنشأكم من علقة ، وهى نفس واحدة ، وقد بينا كيف تحمل النطفة صفات الأب وتحمل البويضة صفات الأم ليُخيَّل لك منها الصفات الجسمية والعقلية والنفسية للأب أو الأم .

فالتلقيح والتزاوج بين الخليتين يحصل اندماج الصفات وتوزعها بطريقة خاصة من حيث ينشأ الإنسان وهو حامل لصفات الأب والأم من طور العلقة .

وقد يكون المستقر هو كل من الأنثيين والمبيضين والمستودع هو الرحم ، أو يكون

المستقرُّ الأنثيان بالتغليب ، لأن الظاهر أمام عامة الناس أن الإنسان هو الذى يتخير لنطفته وينظر أين يضعها وأن المرأة أو الرحم هو المستودع .

فالآية الكريمة بذلك تحمل كل هذه المعانى ، ورأيى على ضوء ما بينته لأفضل تفسير الآية الكريمة على هذا النحو .

قال تعالى : ﴿ **وهو الذى أنشأكم** ﴾ أى أن الله تعالى أنشأكم أيها الناس وخلقكم ﴿ **من نفس واحدة** ﴾ أى مرحمة واحدة حية ذات حياة واحدة ، ونفس واحدة ، أى من علقة أى من بويضة ملقحة بالحيوان المنوى ﴿ **فمستقر** ﴾ أى فتستقرون أول الأمر فى الأنثيين نطفا . وقوله : ﴿ **ومستودع** ﴾ أى ثم تستودعون فى البويضة فتغدو بذلك البويضة مستودعًا لكم وذلك بواسطة تلقيحها بالنطفة فتصبح علقة.

وهذه الآية الكريمة تذكر طور العلقة فى صورة واضحة جلية، وتصفها وصفا دقيقا ودليل ذلك:

أولا : أن العلقة هى خلية واحدة ذات نفس واحدة أو حياة واحدة تحتوى على صفات الخليتين المتزاوجتين ، وهذا ثابت علميا ومشاهد عمليا وعاطفيا واجتماعيا وسلوكيا ... إلخ ، ويفسر قوله تعالى : ﴿ **من نفس واحدة** ﴾ .

ثانيًا : أن الخلق المباشر للإنسان هو من طور العلقة ، فإن طور الطين قبل ذلك ، وبعيد عنه ، وكذلك طور النطفة .

وقد بينا هذا آنفا . قال تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق** ﴾ [العلق : ١ – ٢] وهذا كقوله جل شأنه : ﴿ **وهو الذى خلقكم من نفس واحدة** ﴾ أى من علقة .

قال تعالى : ﴿ **قد فصلنا الآيات** ﴾ أى ووضحناها وذكرنا أطوار الخلق بصور مختلفة مرتبطة ببعضها ، فصلها الله تعالى بقوله : ﴿ **لقوم يفقهون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فى ظلمات ثلاث** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون** ﴾ [الزمر : ٦] .

قال السادة المفسرون : الظلمات الثلاث هى : البطن والرحم والمشيمة . وقال

بعضهم : الصلب والرحم والبطن ، ولكننى اعتقد أن الظلمات الثلاث هى : الأنثيان أى الخصيتان والمبيضان والرحم .

ولما كانت النطفة الملقحة أو البويضة المستقبلة للنطفة لا تخرج إلا من خصية واحدة أو من مبيض واحد ، ويندثر الباقى ، فتكون الظلمات الثلاث هى : الخصية والمبيض والرحم ، فالحيوان المنوى يكون فى خصية الرجل وتعتبر خصيته ظلمة وبويضة الأنثى تنشأ فى المبيض ويعتبر المبيض ظلمة .

فإذا اجتمعا ليكونا الجنين صارا إلى الرحم ليتم الخلق حتى الولادة ، فيعتبر بذلك الرحم الظلمة الثالثة ، ولقد شرحت هذه الظلمات شرحًا وافيا فى هذا المبحث فلا أرى داعيا إلى إعادة ذلك فى هذا المقام .

ولقد هدانى إلى هذا التفسير ما أراه من الارتباط الوثيق بين جميع آيات الكتاب الكريم التى تناولت خلق الإنسان وأطواره ، وأظننى بينت تماما فيما سبق كيف أن الله تعالى ذكر النطفة فى الرجل وعدها أحد أطوار الخلق .

وكيف ذكر البويضة فى الأنثى وأشار إليها إشارات صريحة ، وأرى أنه لا يمكننا إغفال الخصية ، وقد ذكر الله تعالى كما قلنا أن النطفة تنشأ فيها وعد النطفة طورا وأن أطوار الخلق ، فلذلك لزم أن تكون الظلمة الأولى هى التى يتكون فيها هذا الطور ، وتكون بذلك الظلمة الثانية المبيض ، والرحم الظلمة الثالثة ، فقوله تعالى : ﴿ **يخلقكم فى بطون أمهاتكم** ﴾ أى يخلقكم من طريق التزاوج .

وتلقيح النطفة للبويضة ويتم هذا فى جهاز المرأة ، فتكونون بذلك فى طور العلقة ، وهكذا يخلقكم الله تعالى فى بطون أمهاتكم ، وكذلك يخلقكم ﴿ **خلقًا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث** ﴾ فتكونون أولا نطفة فى آبائكم وتكونون كذلك فى ظلمة ثانية فى مبيض المرأة ، لأن للمرأة نصيبًا فى تكوين الجنين .

فالمبيض بذلك هو الظلمة الثانية ، فإذا جاء طور العلقة نشأت فى الأحوال العادية فى رحم المرأة ، فيكون الرحم بذلك الظلمة الثالثة ، وتشبه هذه الثلاثة قوله تعالى : ﴿ **فمستقر ومستودع** ﴾ كما بينا .

قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ [الطارق : ٧] .

قال تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ [الطارق : ٥ – ٧] .

والماء الدافق هو السائل المنوى الذى يحتوى على الحيوانات المنوية الحية ، وسمى دافقا لأنه يصب عند الملامسة بوساطة الانقباضات الخاصة التى تدفع بها القناة الناقلة والحويصلة المنوية ، هذا السائل المحتوى على الحيوانات الحية ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى** ﴾ [القيامة : ٣٧] .

ويقول صاحب القاموس المحيط : دفقه يدفقه ويدفقه صبه ، وهذا ما يجعل الماء الدافق خاصًا بالذكر وحده دون الأنثى ، إذ ليس للمرأة ماء يصب ويتدفق بشدة كماء الرجل ، بل أن للمرأة إفرازًا يسيل لمجرد تلييث الجهاز التناسلى وترطيبه مثل سيلان اللعاب والعرق .

وبذلك يكون قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ أى يخرج من بين صلب الرجل وترائبه ولا دخل هنا لصلب المرأة وترائبها مطلقا كما قدمنا .

والصلب هو السلسلة الفقرية من لدن الكاهل إلى العجز ، والكاهل مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق ، والعجز هو العصعص أى عظام الذنب ، والترائب هى عظام الصدر ولقد رأينا عند الكلام عن النطفة أنها تكون حقيقة فى القنى المنوية فى الأنثيين ولا تكون فى الصلب ولا تكون كذلك من الترائب .

فقوله تعالى : ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ ليس معناه أنه يخرج منهما ، ولكن معناه أنه يخرج بينهما ، أى يخرج من مكان يقع بينهما ، وهذا من عظيم أسرار الإسلام فى الصلب ولبيان ذلك أقوال :

إن أول ظهور الخصية فى الجنين يبدأ كضخامة على طول السطح الأوسط (الجيدولف) .

وهو عبارة عن حدمة تتكون من تزايد قنى ولف فى العدد ، وهذه الضخامة تسمى (الغدد التناسلية) التى تتكون بنشاط البشرة المخاطية الندية ، أى تختص بتكوين الأعضاء التناسلية فى الذكر والأنثى .

ومكان الغدة التناسلية يكون فى أول الأمر فى الفراغ البطنى على جانب المساريقا

على الجهة الأمامية لجسم ولف ، وكلما زاد حجم الغدة التناسلية والمحافظ فوق الكلى قل حجم ولف شيئا فشيئا فتحل محله الكلية (الحقيقة) ما عدا جزءا صغيرا من رأسه فإنه يدخل فى تركيب الأعضاء التناسلية ، وهذا المكان الذى تتكون فيه الخصيتان يقع تماما بين الصلب والترائب حيث يبدأ تكوين الأعضاء التناسلية التى يتكون فيها السائل المنوى والحيوانات المنوية .

فالآية الكريمة ترشدنا بذلك إلى أصل تكوين الغدد التناسلية فى الإنسان ، وتدلنا على مكان وجودها الأول فيه : ﴿ **فلينظر الإنسان** ﴾ وليتأمل وليفكر وليبحث ﴿ **مم خلق** ﴾ ؟ أى من أى شىء خلقه ربه ﴿ **خلق من ماء دافق** ﴾ أى من حيوان منوى يمنى مع السائل المنوى وينصب معه بشدة ليصل إلى الجهاز الداخلى التناسلى للمرأة بتأثير الانقباضات الخاصة – كما قدمنا – والمراد به – كما ذكرنا آنفا – ماء الرجل وحده ﴿ **يخرج** ﴾ أى باعتبار نشأته الأولى وأصل وجوده فى الجنين ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من طين** ﴾ والخطاب لنسل آدم ، وليس النسل الحالى طينا ، ولكنه من طين باعتبار ما كان فى الأصل ، وكقولك : كنت صديقا للدكتور فلان رحمه الله وهو ليس بالدكتور بعد أن توفاه الله ، ولكن كلامك صحيح لغة لأنه دكتور باعتبار ما كان أثناء حياته ، وكذلك الإنسان يخرج باعتبار ما كان ﴿ **من** ﴾ أى من مكان يقع ﴿ **بين الصلب والترائب** ﴾ أى بين عظام السلسلة الفقرية وعظام الصدر .

وإنك لتجد خصية الجنين حوالى آخر الشهر الثانى لوجوده فى الرحم خلف الكلية مغلفتين بثنية من البريتون فى مكان يقع بين عظام السلسلة الفقرية والضلعين الحادى عشر والثانى عشر .

ولأمر ما تترك الغدة التناسلية موضعها الأصلى وتتدلى لتأخذ مكانها العادى فى الصفن (جلد الخصيتين) فى الشهر التاسع للحمل ، وأما فى نهاية الشهر الثالث فتجد الخصيتين على العضلة الحرقفية .

وفى الشهر السادس تجدها فى الإربة (من الورك) .

وفى الشهر الثامن تجدها فى القناة الأربية حتى تأخذ موضعها المشار إليه .

وتقع الكليتان فى المكان الصلبى (القطنى) من الجسم ، وتجدها عن يمين الصلب ويساره من الفقرة الظهرية الثانية عشر ، والفقرة الثالثة الصلبية ، وخلفهما الضلع الثانى

عشر والزوائد المستعرضة للفقرتين الثانيتين الصلبيتين ، والكلية اليمنى تقع فى الغالب أسفل بقليل من اليسرى .

ولعل هناك صلة متينة بين نشوء الغدة التناسلية أعلى الكليتين وبين نشوء المحافظ فوق الكلى أى لها تأثير كبير على الناحية الجنسية .

والمحافظ فوق الكلى تتكون من جزءين هامين ، الجزء الخارجى ويسمى القشرة ، والجزء الداخلى فيها ويسمى اللب ، وسأبرهن هنا على وجود العلاقة المتينة بين المحافظ بقسميها وبين الأعضاء التناسلية ، وأرى أن أبين هذه الصلة بشىء من التفصيل كما يلى :

الجزء الخارجى من المحافظ ويسمى القشرة وينشأ من الجسم (الوولفى) الذى تنبت منه أعضاء التناسل ، فالقشرة بذلك من أصل الميزودرم الذى تنشأ منه ايثيليوما القنى المنوية والرحم وأعضاء الذكر التناسلية وتدخل فى ذلك الخصيتان وقنواتهما وامبثيلوما الحويصلة البروستاتية والمبايض وحويصلات جراف وقناة فالوب والرحم والجزء الأعلى من المهبل .

والقشرة لها إفراز داخلى له تأثير عظيم على الأعضاء التناسلية ، ويثبت ذلك إذا أصيبت القشرة بالتضخم أو الأورام فى الأولاد ، إذ يصحب ذلك بدور النمو وتبكيره وازدياد فى تقدم الحالة الجنسية مع السمن المفرط والشذوذ فى توزيع الشعر ، فيبدو الولد الذى فى ستة عشرة سنة وكأنه فى سن الثامنة عشر سنة ، ليس فقط من حيث الطول والوزن ونمو العضلات بل كذلك فى عمق الصوت ونمو الشعر فى الشفة العليا والإبط والعانة وتقدم الأعضاء التناسلية ويصبح ناضجا من هذه الناحية ، وتغدو ميوله ميول شاب فى الثامنة عشر لا فى سن الستة عشرة سنة .

وقد وجدت أولادا فى سن السنتين ولهم أعضاء تناسلية كاملة النمو .

وعندما يزيد إفراز هذا الجزء فى الكبار من الرجال يزيدون فى السمن المفرط ، وفى النساء يقف الحيض وينمو شعرهن نحو شعر الرجال .

وعند استئصال الأورام التى تصيب القشرة ، قد يرجع الشعر لحالته الطبيعية ، وتعود الأعضاء التناسلية لحالتها الطبيعية كذلك . وعدم كفاية إفراز القشرة فى الرجال ينتج عنه استرخاء القضيب ونقص فى التغذية الجنسية .

ولب المحافظ فوق الكلى تنشأ من الخلايا التى تنفصل من بقايا المجموعة أو العقد العصبية السمبتاوية المجاورة والملاحقة لها ، فهى على ذلك من أصل اكتودرمى .

والمجموعة العصبية السمبتاوية لها تأثير هام على الأعضاء التناسلية ، إذ أنها تتوزع إلى ثلاثة ضفائر هى : الضفيرة القلبية والبطنية والحوضية .

والضفيرة البطنية تنقسم إلى أخرى أقل منها كضفيرة المحافظ فوق الكلى وضفيرة الخصيتين (أو المبيضين) والحاجزية والطحالية والكبدية والمعدية اليسرى والكلوية والمساريقية العليا والبطنية الأورطية والمساريقى الداخلية .

وضفيرةالمحافظ فوق الكلى تتكون من فروع الضفيرةالبطنية المتحدة من العقدة البطنية.

ومن الأعصاب الحاجزية والحشوية وتتكون عقدة عند نقطة اتصال العصب الأخيرة والضفيرة تغذى المحافظ فوق الكلى وتنتشر خاصة فى جزئها اللبى .

وضفيرة الخصيتين متخذة من الضفيرة الكلوية وتستقبل فروعا من الضفيرة الأورطية وتصحب فى سريانها الشريان الخصوى إلى الخصيتين .

وفى المرأة تنشأ الضفيرة المبيضية العصبية من الضفيرة الكلوية ، وتصحب الشريان المبيض وتغذى المبيض وجسم الرحم .

والضفيرة الثالثة من ضفائر العقد السمبتاوية هى الضفيرة الحوضية وتنقسم إلى ضفائر أخرى كالضفيرة الشرجية الوسطى والضفيرة المثانية التى تعطى فروعًا إلى الحويصلات المنوية والقنوات الناقلة للمنى والفروع التى تصحب هذه القنوات الأخيرة تتحد عند الحبل المنوى مع الفروع التى تأتى من الضفيرة الخصوية والضفيرة الثالثة من الضفيرة الحوضية تسمى الضفيرة البروستاتية وتعطى البروستاتا والحويصلة المنوية وأغشية القضيب ، الضفيرة المهبلية تعطى المهبل والرحمية تعطى الرحم وتتحد مع الضفيرة المبيضية ، تثبت لك بذلك الصلة المتينة بين هذه الأعضاء التى تنشأ فى مكان واحد وصلتها المتينة بعضها ببعض فالأعضاء التناسلية التى تنشأ بين الصلب والترائب مع المحافظ فوق الكلى والعقد السمبتاوية لها علاقة عظمى مع الأخيرين واتصال وثيق بينهما ، وهذه الحكمة هى التى نأخذ من معنى قوله تعالى : إن الإنسان خلق من مكان يقع بين الصلب والترائب .

طـور المضغـة

قال تعالى : ﴿ **فخلقنا العلقة مضغة** ﴾ وأرى طور المضغة فى حياة الجنين هو ذلك الطور الذى تتحول فيه البويضة الملقحة إلى حالة تصبح فيها مكونة من ثلاث طبقات : الطبقة الخارجية والطبقة الوسطى والطبقة الداخلية .

وأرى فى هذا المقام أن اكتب كلمة مختصرة عن تحول العلقة إلى مضغة ، فإنه بمجرد اندماج خلية الذكر والأنثى وتكوينها خلية واحدة ، يبدأ النشاط على هذه الخلية الأخيرة ، فتنقسم انقساما ذاتيا إلى خليتين متساويتى الحجم تقريبا ، وتنقسم كل خلية من هاتين إلى خليتين أخريين فتصبح الخلية الأولى أربع خلايا ، تنقسم كل منها فتغدو ستة عشر وهكذا يستمر الانقسام حتى تتجمع فى البويضة عدد كبير أو كتلة من الخلايا وتسمى البويضة وفى هذه الحالة (التوتية) لوجه شبه بينها وبين ثمرة التوت .

يظهر بعد ذلك تحول فى هذه الكتلة تترتب إلى طبقتين ، طبقة خارجية وأخرى داخلية ، والطبقة الخارجية ترتب نفسها على محيط دائرة البويضة ولا تدخل فى تكوين الجنين بل تلعب دورا هاما فى توسيد البويضة فى الغشاء المخاطى المبطن للرحم فتكون المشيمة . والطبقة الداخلية هى التى ينشأ منها الجنين ويتصل بالطبقة الخارجية عند بقعة واحدة تسمى البقعة الجرثومية .

بعد ذلك تكون الطبقة الداخلية غشاء يسمى (بلاستودرم) أو (أدمة الجرثومة) لا يلبث أن ينقسم إلى ثلاث طبقات من الخلايا : طبقة خارجية وتسمى (اكتودرم) ، وطبقة داخلية تسمى (اندودرم) ، أخرى بينها تسمى (ميذودرم) .

وكل طبقة من هذه الطبقات مستقلة عن أختها تمام الاستقلال ، ولكل منها نسيج خاص بذاته تنشأ منه أعضاء خاصة وأنسجة معينة من أنسجة الجنين ، وهذا الطور على ما نعتقد يسمى بالمضغة ، ولقد دعانا إلى تعيين هذا الطور وتحديده قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم**

من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ [الحج : ٥] .

فقوله تعالى : ﴿ **مخلقة وغير مخلقة** ﴾ صفة للمضغة ، وتوضيح حالتها وتحديد لها ، قال تعالى : ﴿ **لنبين لكم** ﴾ أى لنبين لكم طور المضغة وغيرها .

فالمضغة مخلقة لتكون الثلاث طبقات التى تعتبر أصل الأعضاء المختلفة فى الجسم الإنسانى والمحتوية على عناصرها فهى نواة أنسجة الجسم وأجزاء البدن .

فإن من الاكتودروم تنشأ معظم الأنسجة الايثلومية فى الجسم الإنسانى، وكذلك تنشأ منها أنسجة الجهاز العصبى والغدة الصنوبرية ولب المحافظ فوق الكلى ومعظم الغدة النخامية.

وتنمو من الاندودرم كذلك الغدة الدرقية والبقايا الجرثومية للغدة التموسية .

ومن الاندودرم يتكون اميثليومات الجهاز الهضمى (ما عدا الفم) وجميع غدد هذا الجهاز واميثليومات قناة استاخيو من الطبلة إلى البلعوم والتجويف الطبلى للأذن والحنجرة والقصبة الهوائية وشعبتاها والخلوات الهوائية والمثانة ومجرى بول المرأة وأعلى المهبل وأعلى مجرى بول الرجل وغدده .

وينمو من الميزودرم كل الأنسجة الخام وخلايا الدم والليمف والطحال والغدد الليمفاوية وقشرة المحافظ فوق الكلى والفارشة الداخلية للقلب والأوعية الدموية والليمفاوية والأغشية المصلية وجميع عضلات الجسم واميثلومات القنوات الحاملة للبول والحالبين وحوض الكليتين والأعضاء التناسلية للرجل والمرأة .

فبذلك تجد أن هذه الأغشية الثلاث هى بذور أعضاء الجسم المختلفة ، وكأن بالمضغة مخلقة لوجود هذه العناصر والأنسجة والأعضاء فى مادتها تنمو منها شيئا فشيئا وكأن بالمضغة ساعتئذ كحبة الفول حيث توضع فى الماء أو فى الأرض المبللة فتفرج فلقتاها عن المنطقة الجنينية وعن ظهور غشاءين أحدهما يمثل الجذر والثانى يمث الجذع والفروع والأوراق والثمار .

فحبة الفول لا تستطيع أن تسميها شجرة ولكنك تستطيع أن تسميها نباتا أو بذرة منبتة لأن أجزاءها ابتدأت فى الوضوح فالبذرة بذلك مخلقة كالمضغة لوجود الأصول وغير محققة لعدم ظهورها ووضوحها .

ولقد دعانى إلى تسمية هذا الطور بالمضغة كذلك لأنه أهم طور من أطوار الجنين فى الرحم بعد العلقة ، فالعلقة حمل وتلقيح البويضة ، والمضغة ابتداء ظهور الأنسجة المختلفة للجسم الإنسانى .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر حكمة وضع (ثم) هذا الموضع فى هذه الآية الكريمة بعد العلقة ، وهى للترتيب مع التراخى بدلا من الفاء التى تدل على الترتيب مع التعقيب ، فذلك لأن الله تعالى حيث ذكر أن المضغة مخلقة وغير مخلقة أراد تفصيلها ووصْفها ، وأراد عدها طورا هاما فى أطوار الخلق ، وأنها لا تنشأ طفرةً واحدة ، بل أراد أن العلقة لا تبلغ طور المضغة المخلقة وغير المخلقة إلا بعد أن تعتريها تغيرات عديدة وتطورات ثانوية مختلفة ، فلا يؤدّى المعنى تامًّا إلا إذا قلنا : ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، فقوله تعالى فى وصف المضغة : ﴿ **مخلقة وغير مخلقة** ﴾ وقوله تعالى بعدها : ﴿ **لنبين لكم** ﴾ يقتضى وضع (ثم) ، وأما إذا حذف هذا الوصف فإنك تستطيع وضع الفاء ، وهذا مثل من أمثلة البلاغة فى القرآن الكريم ، والدقة فى التعبير فى آيات الكتاب الذى يقول الله تعالى عنه : ﴿ **الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ [هود : ١] . وقوله جل شأنه : ﴿ **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** ﴾ [فصلت : ٣] .

وهكذا لا نجد حرفا فى القرآن الكريم ليس له معنى ، وهكذا نجد الحرف فى القرآن الكريم يشير إلى أدق الأغراض وأسمى المعانى مما لا يدركه من لم يتذوق كتاب الله ولم يتدبر ألفاظه ومعانيه ، وصدق ربنا جلَّ وعلا فى دعوته خلقه للتدبر فى كلامه فى قرآنه .. فى واحدة من صفاته العلا حيث قال جلَّ شأنه : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن .. ولو كان من غير عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا** ﴾ [النساء : ٨٢] .

وكيف يتأتى الاختلاف وصاحب الدين هو خالق الخلق ! سبحانه .

طـور العظـام واللحـم

قال تعالى : ﴿ **فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما** ﴾ ولقد ثبت فعلا فى علم الأجنة أن العظام تنشأ بعد طور المضغة مباشرة فإن النوتوكورد أو الحبل الأصلى الظهرى هو المحور الأول لعظام الجنين الذى تتكون حوله أجزاء العمود الفقرى ، ولمعرفة تفاصيل نشوء العظام يرجع فى ذلك إلى كتب علم الأجنة ، وما أردنا هنا إلَّا إثبات معجزة القرآن الخالدة فى تقريره نشوء العظام قبل اللحم .

تنشأ عظام الجنين فلا تلبث أن تنشأ حولها العضلات واللحم ، وتظهر أجزاء الجسم الجنينى شيئا فشيئا حتى يصير خلقا آخر بولادته ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ .

﴿ **خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى** ﴾ ولقد ثبت فى علم الطب أن بويضة الأنثى ليس لها دخل فى تكوين الذكر أو الأنثى ، بل إن الحيوان المنوى نفسه (النطفة) هو وحده الذى يحدد نوع المولود سواء كان ذكرا أو أنثى .

(هذا البحث من كتاب « الإسلام والطب » للدكتور محمد وصفى ، ولغيره من العلماء آراء أخرى ، وما زال هذا البحث محل اجتهاد العلماء الذين تعددت آراؤهم[1] ، وكل أدلى بدلوه حسب اجتهاده ، والكل يجمع على عظمة الخالق جل جلاله ، والكل مجتهد بعلم ، فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر ، والله نسأل أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه) .

---

(١) مع مراعاة أن الحقائق العلمية تابعة للحقائق الدينية وليس العكس ... فالحكم النهائى فى أى قضية علمية يخضع للحقيقة الدينية وينبثق منها امتدادًا لعطاء القرآن وهذا من الأهمية بمكان فى جميع الأبحاث التى يرجو بها أصحابها رضوان الله وشفاعة نبيه عليه الصلاة والسلام .

اليـوم الحـق

قال ، ﴿ **ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فمن شاء اتخذ إلى ربه مَئَابًا** ﴾ [النبأ : ٣٩] .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدًا رسول الله تاج الأنبياء والمرسلين .

صَلِّ اَللَّهُمَّ وسلم وبارك على هذا النبى الأمين ، وعلى آله وصحابته الغر الميامين ، وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

« اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ، ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخيرَ الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، وَشَر الأمور محدثاتها، وكُلَّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار .

وبعد :

فهذا كتاب خصصنا الحديث فيه عن اليوم الآخر الذى يجب على كل مسلم أن يُعِدَّ له الزاد ، وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز تقى الدين الحسن البصرى فقال له : عظنا . فقال الحسن : يا أمير المؤمنين صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير . يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ [الحج : ١ - ٧] .

فى هذا المشهد القرآنى ينادى الله تعالى على البشرية آمرًا إياهم بالتقوى ، وقد فسر الإمام على كرم الله وجهه التقوى بأنها : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقد وقف رضى الله عنه بين المقابر ذات يوم فقال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع ، نسأل الله لنا ولكن العافية . يا أهل القبور أما أموالكم فقد قسمت ، وأما بيوتكم فقد سكنت ، وأما نساؤكم فقد تزوجت غيركم ، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم أنصت قليلا والتفت إلى أصحابه وقال : أما والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى [رواه صاحب نهج البلاغة] .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا أرْضَعَتْ وتضع كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

روى عن النبى ﷺ فى تفسير هذا المشهد أحاديث كثيرة ، فقد روى الإمام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال :

« أتدرون أى يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام ، فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : يا آدم إبعث بعثك إلى النار ، فيقول : يارب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار وواحد فى الجنة » قال : فأبلس[1] أصحابه ، فلما رأى ذلك قال : « ابشروا واعملوا فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين[2] ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتاه (يأجوج ومأجوج) ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس » . قال : فسُرّى عنهم ثم قال : ابشروا واعملوا ... إلخ[3] .

قال الإمام البخارى عند تفسير هذه الآية :

حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبى سعيد قال : قال النبى ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادى بصوت : إنّ الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف - أراه قال : تسعمائة وتسعة وتسعون - فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد : ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ » فشق ذلك على الناس حتى تغيَّرت وجوههم . قال النبى ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود ، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبَّرنا ، ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة فكبَّرنا »[4] .

وقال الإمام أحمد ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى : يا آدم : إنَّ الله يأمرك أن تبعث بعثا من ذريتك إلى النار ، فيقول آدم : يارب ، من هم ؟ فيقال له : من كل مائة تسعة وتسعون » فقال رجل من القوم : من هذا الناس الناجى منا بعد هذا يا رسول الله ؟ قال : « هل تدرون ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى صدر البعير »[5] .

---

(١) الإبلاس : الحيرة والسكوت .
(٢) خليقتين : مخلوقين .
(٣) الحديث فى تفسير ابن كثير : جـ ٥ ، ص ٣٨٦ .
(٤) الفتح : جـ ٨ ، ص ٤٤١ ، ط السلفية - القاهرة ، والمرجع السابق ص ٣٨٧ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٨٨ ، وفتح البارى فى الرقاق .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن حاتم بن أبي صغيرة ، حدثنا ابن أبي مليكة : أن القاسم ابن محمد أخبره عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلًا » . قالت عائشة ، يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة : إنَّ الأَمْرَ أشدُّ من أن يهمهم ذاك »(1) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا بن لهيعة ، عن خالد بن أبى عمران ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : قلت ، يا رسول الله : هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : « يا عائشة أما عند ثلاث فلا : أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فينطوى عليهم ، ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكِّلتُ بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ، قال : فينطوى عليهم ، ويرميهم فى غمراتٍ ، ولجهنم جسرٌ أدق من الشعر وأحدّ من السيف ، عليه كلاليب وحسك (شوك) يأخذن من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويدِ الخيل والرِّكاب والملائكة يقولون : رب سلم ، سلم ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكوَّر فى النار على وجهه » . ومعنى قوله تعالى : ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ أى أمر عظيم وخطب جليل وطارق فظيع وحادث هائل وكائن عجيب(2) .

قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ﴾ [الزلزلة: ١ - ٨] والمراد بزلزال الساعة ما يحدث للعقول من فزع وكرب شديدين.

قال عز وجل : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ [الأنبياء : ١٠١ - ١٠٣] .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٨ ، وفتح البارى فى الرقاق .

(٢) ابن كثير : ط الشعب جـ ٥ ، ص ٣٨٨ .

ومعنى قوله جل شأنه : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أى ينشغل كل حميم عن حميمه ويفر كل صديق من صديقه ، حتى أن الأم تلقى ولدها فتقول له : يا بنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان ثديى لك سقاء ، وكان حجرى لك غطاء ، وأنت تعلم ما بى ، أمعك حسنة يعود علَّى خيْرُهَا اليومَ ، فيقول ابنها : ليتنى يا أماه استطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين ، ويلقى الوالد ولده ، فيقول له ولده يا أبت : لقد كنت بك برا ، وإليك محسنا ، وعليك مشفقا ، فهل أجد عندك حسنةً يعود علىَّ خيْرُهَا اليوم ، فيقول له والده : يا بنى ليتنى استطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى وإن تدع مثقلةٌ إلى حملها لا يُحمَلْ مِنْهُ شىءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾[فاطر : ١٨] .

وفى قوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ معنى بلاغى معجز ، فإن الحامل لا تضع حملها قبل تمام مدته إلا إذا أصيبت بفزع شديد ، وهلع عنيف ، وهل هناك بعد زلزلة الساعة فزع أعنف أو هلع أشد ، إنها كناية من ألطف الكنايات ، وعبارة تبوأ مادتها فى أعلى طبقات البلاغة .

قال تعالى : ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ وذلك لما أصابهم من الدهشة والشرود لهول ما يرون ﴿ يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى ﴾ [المعارج: ٨ - ١٨].

ألا يكفى أن يكون هذا المشهد جديرا بأن تذهل المراضع عمن أرضعن ، وأن تضع الحوامل حملهن قبل تمام مدته ، وأن يصير الناس فى سكرة وحيرة ، العقول شاردة ، والألباب فى دهشة ، والأفئدة قد بلغت الحناجر ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : ٣٣ - ٤٢] .

إنهم سكارى من شدة ما رأوا من خطوب وأهوال ، وما هم بسكارى شراب تعاطوه ، أو كؤوس مترعة تجرعوها ، ولكن عذاب الله شديد : ﴿ وجىء يومئذ بجهنم

يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول يا ليتنى قدمت لحياتى . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ [الفجر : ٢٣ - ٢٦] .

إن هذه الآية الكريمة لو تنزلت على جبل لخر لها الجبل هدًا . إنها تنخلع من هولها القلوب ، وتشيب من جلالها الولدان : **﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة ﴾** [الواقعة : ١ - ٣] .

ما النجاة ؟ :

فى الآيتين السابقتين إشارات صريحة إلى أهوال يوم القيامة ، ويكفى أن نضع يد القارىء على هذه المواقف التى تجعل الولدان شيبا ، وتنفطر لها القلوب وتنخلع من هولها الأفئدة .

﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ ويكفى أن تعلم أن الذى أخبر عن كون الزلزلة شيئا عظيما هو الله العظيم .

﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ وهل هناك صلة أقوى من صلة الأم برضيعها . وهل ثمة عاطفة ورحمة تفوق عاطفة الأم برضيعها ورحمتها به .

﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ وهل هناك هول أشد من هذا الهول الذى تطرح فيه الأرحام أجنتها وتلفظها من القرار المكين لفظ النوى ؟

﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ وهل هناك تعبير عن الحيرة أقوى من السكارى ؟

﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ وفى كلمة العذاب والشدة ما تقف أمامه النفس خاشعة لجلال ربها ، متواضعة لكبريائه ، إن كلمة العذاب فى حد نفسها كلمة عصيبة وخطيرة ، فإذا ما أخبر عنها بالشدة بلغت أعلى مكان من الهول والخطب الجسيم .

وبعد هذا العرض السريع ، والمواقف الحاسمة التى نراها تتخلل الآية الكريمة ، نسأل : ما النجاة ؟

ويأتى الجواب على لسان رسول الله ﷺ عندما سأله عقبة بن عامر رضى الله عنه وهو يقول : ما النجاة يا رسول الله ؟ قال له : **« أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك »** .

أما إمساك اللسان : فعن اللغو والرفث والكلام الفاحش ، وعن كل ما حرم الله من الغيبة والنميمة وشهادة الزور وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .. إلخ .

وهنا نسأل ما البديل عن كل هذا ؟

ونجد الإجابة فى قوله ﷺ : **« ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا : بلى . قال : ذكر الله »** [رواه الإمام أحمد بإسناد حسن عن أبى الدرداء] .

ما أروعك يا سيدى يا رسول الله عندما تتكلم بجوامع الكلم فترفعنا إلى أعلى درجات البلاغة ، وما أروع ما قيل فيك :

فما عرف البلاغة ذو بيان
إذا لم يتخذك له كتابا

كلمة موجزة أجاب بها الرسول ﷺ - عن هذا العرض العظيم - شملت (تضمنت) من الخيرات والأجر والدرجة والفضل ، هذه الكلمة هى ذكر الله ، وفى الذكر استحضار عظمة الله فى قلب المؤمن : **﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾** نعم تطمئن لرحمته ومغفرته وعطفه وجوده وكرمه وعفوه وتجاوزه سبحانه .

فذكر الله دواء وشفاء ، وذكر الناس أسقام وداء[1] .

وهل طابت الدنيا إلا بذكره ؟

وهل طابت الآخرة إلا بعفوه ؟

وهل طابت الجنة إلا برؤيته ؟

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم

(١) ذكر الله .. نعم !! فذكره سبحانه لا يضارع .. وهو أغلى وأعلى ما فى الوجود .. وهو الزخر الزاخر المذخور .. لكن ذكر الناس وكونه أسقاما وداء .. فهو يجرى مجرى الغالب .. لكن إن كان خيرًا فيها ونعمت .. إذ قول الخير والبر دليل الإيمان الصادق .

المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [الأنفال : ٢ – ٤] .

وجلت قلوبهم تعظيما لمهابة الله ، وتوقيرا لجلاله وكماله وجماله ، فالذكر فى القلب لال لعظمته ومهابته ، فإذا أمسك الإنسان لسانه عن اللغو فإنه من الخير أن ينشغل بذكر الله .

والذكر كما قالوا على سبعة أنحاء : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء (أى : لسماع الخير) ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .. بداهة مع الإخلاص والصدق لباسط الأرض ، ورافع السماء .

فإذا ما وسع الإنسان بيتُه ، فقد أصبح بعيدًا عن مواطن الشبهة ومجالس الريبة وأماكن الفسق . ومن وضع نفسه موضع الريبة والشبهة ، فلا يلومن من أساء الظن به .

إذا ما وسع الإنسان بيتُه كما أخبر النبى ﷺ فى إرشاده : « **وليسعك بيتك** » فإنه يكون فى بيته كالمصباح المضىء بين أولاده ، بعيدا عن كل ما يلهى ويشغل ، ويصبح بيته من البيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .. لما ينساب تحت سقفه من ذكر لله وحده فى الجو الطاهر .

وتأتى الفقرة الثالثة : « **وابك على خطيئتك** » وهل يبكى الإنسان على خطيئته إلا إذا كان قلبه مليئا بخير وتوبة ؟ وهل يصل الإنسان إلى هذه الدرجة إلا إذا استحضر عظمة الله فى قلبه ؟

﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله**(١) . **ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ إذن فمدار الأمر كله وطريق النجاة يدور حول ذكر الله ويرتكز عليه ، فهو قطب الرحى ، ومناط الاستنباط وحجر الزاوية ومحور الارتكاز ومركز الدائرة . ومن ثم فإنه لا بأس أن نسجل هنا حشدًا من فوائد الذكر التى نص عليها العلامة ابن القيم فى كلامه القيم يقول :

عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « **ما من قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة**

(١) الرد : لا أحد .

وذكرهم الله فيمن عنده ﴾ [رواه مسلم والترمذى وابن ماجة .. بلفظ : لا يقعد قوم يذكرون ...] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله قراءة القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين . وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه** » [رواه الترمذى : (حسن غريب)] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **يقول الرب يوم القيامة : سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم**(١) . **فقيل : ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر فى المساجد** » [رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والبيهقى وابن حبان فى صحيحه] .

وعن معاوية رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : « **ما أجلسكم ؟** » قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده . فقال : « **أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة** » [أخرجه مسلم] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات** » [أخرجه أحمد] .

وعن ثابت قال : كان سلمان فى عصابة (جماعة) يذكرون الله فمر النبى ﷺ فكفوا فقال : « **ما كنتم تقولون ؟** » قلنا : نذكر الله . قال : « **إنى رأيت الرحمة تنزل فأحببت أن أشاركم فيها** » . ثم قال : « **الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم** » [أخرجه الإمام أحمد والحاكم وصححه] .

« فوائد الذكر كما ذكرها العلامة ابن القيم » ؟

والآن إلى ما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى .

(١) بمعنى الإكرام .. أهل لأن يكرموا ويجزل لهم العطاء وتفاض عليهم رحمات الله وجوده وعفوه .

قال رضى الله عنه فى فوائد الذكر :

وفى الذكر أكثر من مائة فائدة :

الأولى: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية: أنه يُرضى الرَّحْمـٰنَ عز وجل .

الثالثة: أنه يُزيلُ الْهَمَّ والغَمَّ عَن الْقَلْبِ .

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الخامسة: أنه ينور الوجه والقلب .

السادسة: أنه يقوى القلب والبدن .

السابعة: أنه يجلب الرزق .

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

التاسعة: أنه يورث المحبة التى هى روح الإسلام ، وقطب رحى الدين ، ومدار السعادة والنجاة ، وقد جعل الله لكل شىء سببا ، وجعل سبب المحبة دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله تعالى فليلهج بذكره ، فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم .

العاشرة: أنه يورث المراقبة حتى يدخله فى باب الإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

الحادية عشرة: أنه يورث الإنابة وهى الرجوع إلى الله عز وجل ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه فى كل أحواله ، فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه ، وملاذه ومعاذه ، وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .

الثانية عشرة: أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه .

الثالثة عشرة: أنه يفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة .. وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .

الرابعة عشرة: أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى ، بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق فى قلبه .

الخامسة عشرة: أنه يورث ذكر الله تعالى له كما قال تعالى : **﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾** ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفًا . وقال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : **« من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خيرٍ منهم »** .

السادسة عشرة: أنه يورث حياة القلب . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟ يفقد الحياة ويموت .. قطعًا .

السابعة عشرة: أنه يورث جلاء القلب من الصدأ ، وكل شىء له صدأ ، وصدأ القلب الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار .

الثامنة عشرة: أنه يزيل الوحشة بين العبد وربه تبارك وتعالى ، فإن الغافل بينه وبين ربه عز وجل وحشة لا تزول إلا بالذكر .

التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

العشرون: إن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره فى الرخاء عرفه فى الشدة ، وقد جاء أثر معناه أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى إذا أصابته شدة ، أو سأل الله حاجة ، قالت الملائكة : يارب صوت معروف من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله تعالى إذا دعاه وسأله قالت الملائكة : يارب صوت منكر من عبد منكر (أى : مجهول لهم) .

الحادية والعشرون: أنه منج من عذاب الله تعالى ، كما قال معاذ رضى الله عنه ويروى مرفوعًا : **« ما عمل آدمىٌّ عملًا أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى »** [رواه الترمذى فى كتاب الدعاء] .

الثانية والعشرون: أنه سبب تنزل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبى ﷺ .

الثالثة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللّسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل ، فإن العبد لابد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره ، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى .

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عود لسانه ذكر الله صان لسانه من الباطل واللغو ، ومن يبس لسانه عن ذكر الله ترطب بكل باطل ولغو وفحش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الرابعة والعشرون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين ، فليتخير العبد أعجبهما إليه وأولاهما به ، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة .

الخامسة والعشرون: أنه يسعد الذاكر بذكره ويسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أينما كان ، والغافل واللاغي يشقى بلغوه وغفلته ويشقى به مجالسه .

السادسة والعشرون: أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة ، فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة .

السابعة والعشرون: أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه والناس في حر الشمس قد صهرتهم في الموقف وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

الثامنة والعشرون: أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطى السائلين . ففي الحديث عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ : **« قال سبحانه وتعالى : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »** .

التاسعة والعشرون: أنه أيسر العبادات وهو من أجلها وأفضلها ، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من أعضاء الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

الثلاثون: أنه غراس الجنة ، فقد روى الترمذي في جامعه من حديث عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : **« لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل عليه**

السلام ، فقال : يا محمد أقرىء أمتك السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » [حسن غريب] .

الحادية والثلاثون: أن العطاء والفضل اللّذين رُتّبا عَلَيْهِ لَمْ يُرَتّبا عَلَى غَيْرِهِ من الأعمال . ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **« من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه »** . وزاد مسلم والترمذى والنسائى : ومن قال : **« سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »** .

الثانية والثلاثون: أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان (العبد) نفسه ومصالحها . قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [الحشر : ١٩] .

الثالثة والثلاثون: أن الذكر يسير العبد وهو في فراشه وفي سوقه ، وفي حال صحته وسقمه ، وفي حال نعمه ولذته ، وليس شيء يعم الأوقات والأحوال مثله ، حتى إنه يسير العبد وهو نائم على فراشه ، فيسبق القائم مع الغفلة ، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ، ويصبح ذلك القائم الغافل في ساقة الركب ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وحكى عن رجل من العُبّاد نزل برجل ضيفا ، فقام العابد ليله يصلى وذلك الرجل مستلق على فراشه فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، فقال : ليس الشأن فيمن بات مسافرا وأصبح مع الركب ، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب .

وهذا ونحوه له محمل صحيح ومحمل فاسد ، فمن حكم على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت فهو باطل ، وإنما محمله أن هذا المستلقى

على فراشه علق قلبه بربه عز وجل ، وألصق حَبَّة قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة قد غاب عن الدنيا ومن فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام أو خوف على نفسه من رؤية عدو له يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه وفى قلبه ما الله تعالى به عليم ، وآخر قائم يُصلى ويتلو وفى قلبه من الرياء والعجب وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ما الله به عليم ، أو قلبه فى وَادٍ وجِسْمُهُ فى وَادٍ . فَلا رَيْبَ أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة فالعمل على القلوب لا على الأبدان ، والمعول على الساكن لا على الأطلال والاعتبار بالمحرك الأول فالذكر يثير الساكن ويهيج الحب المتوارى .

الرابعة والثلاثون: أن الذكر رأس الأصول ، وطريق عامة الطائفة الصوفية ، ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليتطهر وليدخل على ربه ليجد عنده كل ما يريد ، فإن وجد ربه عز وجل فقد وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عز وجل فقد فاته كل شيء . ونعوذ بالله أن يفوتنا ربنا الرحمن الرحيم سبحانه .

الخامسة والثلاثون: أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التى شمر إليها السالكون ، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر ، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها ، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد ، وهو أصل كل مقام وقاعدته التى ينبنى ذلك المقام عليها كما تُبنى الحائط على أسِّه ، وكما يقوم السقف على حائطه ، وذلك أن العبد إن لم يستيقظ لم يمكنه قطع منازل السير ، ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم ، فالغفلة نوم القلب أو موته .

السادسة والثلاثون: أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه ، وهذه المعية معية خاصة، غير معية العلم والإحاطة العامة ، فهى معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ ﴿ **والله مع الصابرين** ﴾ ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ .

وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر ، كما فى الحديث الإلهى : **« أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه »** .

وفى أثر آخر : **« أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى ، إن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم فإنى أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب »** .

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء ، وهى أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقى ، وهى معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة وإنما تعلم بالذوق .

السابعة والثلاثون: إنَّ أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطبا بذكره ، فإنَّ إتقاه فى أمره ونهيه ، وجعل ذكره شعاره ، فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار ، وهذا هو الثواب والأجر ، والذكر يوجب له القرب من الله عز وجل والزلفى لديه ، وهذه هى المنزلة .

الثامنة والثلاثون: أن فى القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى ، فينبغى للعبد أن يداوى قسوة قلبه بذكر الله تعالى .

وذكر حماد بن زيد : أن رجلا قال للحسن : يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبى . قال : أذبه بالذكر ، وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة ، اشتدت به القسوة ، فإن ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص فى النار ، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله تعالى .

التاسعة والثلاثون: أن الذكر شفاء القلب ودواؤه ، والغفلة مرضه ، فالقلوب مريضة ودواؤها وشفاؤها ذكر الله تعالى . قال مكحول : ذكر الله تعالى شفاء وذكر الناس داء .. وقيل :

إذا مرضنا تداوينا بذكركم
وترك الذكر احيانا فنتكس

الأربعون: أن الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها ، والغفلة أصل معاداته ورأسها ، فإن العبد لا يزال يذكر ربه حتى يحبه فيواليه ، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه .

قال الأوزاعى : قال حسان بن عطية : ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن

يكره ذكره أو من يذكره ، فهذه المعاداة سببها الغفلة ، ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر الله ، ويكره من يذكره ، فحينئذ يتخذه الله عدوًا كما اتخذ الذاكر وليا .

الحادية والأربعون: أن الذكر سدٌّ بين العبد وبين جهنم ، فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال كان الذكر سدًا فى تلك الطريق ، فإذا كان ذكرا دائما كاملا كان سدًا محكمًا لا ينفذ فيه ، وإلا فبحسبه .

الثالثة والأربعون: أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى ، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى . قال تعالى : **﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾** .

يقول الحسن البصرى إمام التابعين : أحب عباد الله إلى الله أكثرهم ذكرا وأتقاهم قلبا .

وقال ذو النون المصرى : ما طابت الدنيا إلا بذكره ولا طابت الآخرة إلا بعفوه ولا طابت الجنة إلا برؤيته .

يقول أبو سعيد الخراز رحمه الله : إن الله تعالى عجل بأرواح أوليائه التلذذ بذكره ، والوصول إلى قربه ، وعجل بأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزل نصيبهم من كل كائن ، فعيش أبدانهم عيش الجنانيين (أهل الجنة) وعيش أرواحهم عيش الربانيين .

وبعد بيان هذه الفوائد - المختارة - من التى أفاض الله بها على قلب صاحبها ، نلتقى مع القرآن الكريم فنصل زحفنا المقدس بآياته البينات من سورة الحج .

قال تعالى : **﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾** [الحج : ٣ - ٤] .

هاتان الآيتان الكريمتان بوضعهما فى هذا النسق الرتيب تدلان دلالة قاطعة على أن من الناس فريقا طبع على الجدال بالباطل والخصومة الكاذبة والمراء بغير حق ولو كان ذلك فى حق الله .

ومع ذلك فإن الله لا يعجل كعجلة أحدنا إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . قال تعالى : **﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾** .

وروى الإمام البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : **« لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل أنه ليشرك به ويجعل له الولد ويعافيهم ويرزقهم »** .

ما أقبح الجدل إذا لم يكن المقصود به الوصول إلى الحق ، وما أشد قبحه إذا كان بغير علم بأن كان مبنيا على الجهل ، وأعدى أعداء الإنسان جهله ، وما أشد شناعته إذا كان بغير هدى بأن كان مبنيا على ضلال وبعد عن الحق .

وما أشد جرمه إذا كان اتباعا لكل شيطان مريد من شياطين الإنس والجن ، وأشد هذا كله أن يكون جدلًا فى الله من بعد ما استجيب له وظهرت آياته فى الآفاق والأنفس ، وما أخطر الطريق إذا كان الجدل سيرا وراء الشيطان ، كتب عليه أن كل من تولاه واتخذه وليا ومرشدا فإنه يضله ضلالا بعيدا فى الدنيا ، ويهديه إلى عذاب السعير [النار الشديدة] فى الآخرة : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾** .

جاءت هاتان الآيتان بعد قوله تعالى : **﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾** لتفيد أن من الذين يجادلون فى الله ناسًا يجادلون فى وقوع البعث ويعاندون ويكابرون .

قال تعالى : **﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾** .

وقال جل شأنه مبينا خصومة ذلك الإنسان العنيد فى قوله : **﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾** .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه قال : حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : **« قال الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم يكن لى كفوا أحد »** .

البعث حق

﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .

لما ذكر الله تعالى أن هناك فريقا من الناس يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد أعقب ذلك بذكر الأدلة على البعث بعد الموت حتى يقطع الجدال الذى تلوكه ألسنة المكابرين الجاحدين فقال : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ وهذا نداء للبشرية جمعاء ﴿ **إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب** ﴾ ثم بعد ذكر هذه الآية الواضحة البينة ذكر خمس نتائج أنتجتها الآية :

الأولى: ذلك بأن الله هو الحق . .

الثانية : أنه محيى الموتى .

الثالثة : وأنه على كل شيء قدير .

الرابعة : وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

الخامسة : وأن الله يبعث من فى القبور .

أدلة البعث

ومن يقرأ آية البعث يجدها قد اشتملت على نموذجين من الأدلة :

الدليل الأول :

قياس الإعادة على البدء وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا** ﴾ .

الدليل الثانى :

قياس البعث على نبات الأرض فإن بين الإنسان وبين النبات صلة قوية . قال تعالى : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾ .

وصفوة القول أن الله الذى بلغت قدرته شأوًا لا حدود له ، والذى خلق الإنسان من العدم قادرٌ على أنْ يُعيدهُ بَعْدَ أنْ تتفرق أجزاؤهُ ويفنى جسده وهذا قياس الأول أى قياس الأدنى على الأعلى فالذى أوجد من العدم قادر بالأولى على أن يعيد بعد الإيجاد .

ثم إذا انتقلنا إلى النموذج الثانى من الأدلة وهو القياس على النبات وجدنا الأرض الميتة الهامدة الساكنة سرعان ما ينزل عليها الماء فتحيا بالنبات ، وما النبات والإنسان إلا كائنات حية تشترك فى صفات كثيرة وأطوار عدة .

أدلة أخرى

وقد حشد القرآن الكريم آيات بينات لهذه المعركة التى دارت رحاها بين العقيدة المؤمنة والأخرى الجاحدة ، وكلها تدور حول قضية البعث ، وهذه الأدلة آيات ناطقات بعظمة الله وجلال إبداعه فى كونه ، وبعد حشد الأدلة يذكر البعث ويقرره .

من ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد : ﴿ **المر . تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى**

يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [الرعد : ١ - ٤] .

بعد حشد هذه الأدلة البينة بعرض القرآن لقضية البعث فيقول : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [الرعد : ٥] .

وكأنى بالقرآن الكريم يلقى باللائمة على هؤلاء الذين اتضحت أمامهم الأدلة المنصوبة فى عالم السماء والأرض ، كيف يسألون هذا السؤال العجيب ؟ وهم يعلمون علم اليقين أن الآيات على قدرة الله تحيط بهم ، من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

كيف يسألون هذا السؤال وهم يعتقدون أن الذى أخبر بالبعث بعد الموت هو الذى نصب الآيات فى الآفاق والأنفس ، ومن هنا فقد حكم على هؤلاء الجاحدين بثلاث أشياء : ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [الآية السابقة] .

نعم إن إنكار البعث كفر بالله لأنه تكذيب لإخبار الله به فى القرآن .

واستمع إلى قول هذا الرجل الذى قص القرآن قصته مع صاحبه وهو يحاوره ، والذى جاء فى سورة الكهف : ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا** ﴾ .

فماذا قال له صاحبه ردا على قوله : ﴿ **وما أظن الساعة قائمة** ﴾ .

﴿ **قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا** ﴾ [سورة الكهف] .

فحكم عليه بالكفر لإنكاره البعث : ﴿ **لكن هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا** ﴾ [سورة الكهف] .

إن لنا فى آيات سورة الرعد عجبا عندما نتأملها ونتأمل القدرة الفائقة ، عندئذ لا يمكن أن يكون للشك سبيل فى قلوب ذوى البصائر : ﴿ **الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾ [سورة الرعد] .

إن السماوات عالم عظيم يدهش العقول : ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ فماذا يقول العلم فى هذا العالم البديع الصنع ؟

إننا نسوق نبذة يسيرة مما قاله العلم فى هذا الكون لا تزيد عن كونها شعاعًا متسللا من حنايا النافذة : ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ [سورة الكهف] .

عظمة الكون

جاء فى كتاب (العلم فى خدمة الدين) للباحث محمد عاطف البرقوقى ما نصه :

إذا كان الإنسان قد بهرته الأرض واتساعها ، ولم يكشف عن جميع نواحيها إلا بعد آلاف السنين ، ولم يصل إلى القمر إلا فى القرن العشرين (القمر الصناعى) ، وكان لوصوله دوى عظيم ملأ الأسماع من إذاعات العالم وأشبع الأبصار من صوره ، ومع ذلك فإن القمر الصناعى الأول لم يزن أكثر من ١٨٤ رطلا ، ثم زاد القمر الثانى إلى ٥٠٨ رطلا ، وبلغ فى سنة ١٩٦٠ عدة أطنان ، فأين هذا من وزن القمر الطبيعى ؟

بل ما كان يصح إطلاقا تسمية هذه القنبلة الصغيرة قمرا على الاطلاق ، وأين هذا من وزن الأرض ؟

وأين وزن الأرض بالنسبة للشمس التى يبلغ وزنها ٠٠٠ر٣٢٣ر٣ مرة من وزن الأرض ، ومع ذلك فهنالك فى الكون بلايين النجوم وشمسنا ما هى إلا نجم من

النجوم ، وإنما تبدو لنا الشمس كبيرة لقربها من الأرض ، وقد قربها رغم أن الإنسان بحجمه وغروره لم يصل إلى جزء من مليون من المسافة بينه وبين الشمس .

والعلم بعد كشفه للمنظار . وكان أول منظار كشفه العالم الإيطالى (جاليليو) (١٥٦٤ إلى ١٦٤٢) ، وتطورت المناظير بعد ذلك فقويت وقربت ، وإن كان الإنسان يستطيع بالنظر إلى السماء ليلا بالعين المجردة أن يشاهد ٦٠٠٠ نجم ، فإنه بعد كشف المناظير استطاع أن يشاهد ٨٠ مليون نجم ، ثم بطرق علمية أخرى وخاصة بالتصوير العلمى استطاع أن يدرك وجود ١٥٠ مليون نجم ، وما خفى كان أعظم ، والواقع أنه يوجد أضعاف هذا العدد من النجوم فى الكون ، والنجوم والكواكب موزعة فى الفضاء مجاميع مثل الطيور ، تطير فى الفضاء أسرابا ، والأرض والقمر والمشترى والزهرة والشمس وغيرها تكون مجموعة هى المجموعة الشمسية ، ويوجد عدد عظيم من المجموعات المتشابهة فى الكون .

فالأرض ليست إلا واحدة من المجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية ليست إلا واحدة من وحدات المجموعة المجرية ، فالأرض على عظمتها واتساعها ، والتى بهرت الإنسان ما هى إلا جزء صغير من الكون العظيم .

ولكى أبين لحضراتكم اتساع الكون أقول أن البعد بين الأرض والشمس يبلغ (٩٢٫٨٧٠٠٠) ميل ، وهى مسافة كبيرة كما ترون ، ولكن هذا البعد الكبير ليس إلا جزءا صغيرا من أبعاد تفوقه كثيرا بين الأرض والنجوم البعيدة .

ولكى أصور لحضراتكم عظمة هذه الأبعاد ألجأ إلى طريقة أخرى هى طريقة سرعة الضوء : إذ كثيرا ما يُلجأ إلى تصوير المسافات البعيدة بالسرعة فنقول مثلا : ان المسافة بين القاهرة والاسكندرية تبلغ ثلاث ساعات بالقطار السريع ، وأن المسافة بين المنزل والمحطة تبلغ ساعة بالسيارة مثلا . والسرعة التى سنتخذها وحدة فى تقدير أبعاد الفضاء ليست بالسيارة ولا القاطرة ولا الطائرة النفاثة والصواريخ ، بل هى سرعة الضوء ، وهى أكبر سرعة معروفة فى العالم . وسرعة الضوء هى أيضا سرعة اللاسلكى . ولكى أوضح لحضراتكم عظم هذه السرعة أوجه النظر بمقارنتها بسرعة قطار سريع يقطع فى الساعة ٦٠ ميلا ، أى بسرعة ميل واحد فى الدقيقة ، أو جزء من ستين جزءا من الميل فى الثانية .

أما الضوء فلا يقطع كثيرا من ميل فى الثانية ، بل يقطع ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية أى ما يعادل ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر فى الثانية ، وهى سرعة عظيمة بلا شك .

وهناك حقيقة أخرى تبين عظمة هذه السرعة ، وهى أن المسافة بين الشمس والأرض وهى نحو ٩٢ مليون ميلا كما ذكرنا ، وأشعة الشمس تصل إلى الأرض بسرعة الضوء العظيمة ، فتقطع المسافة بينهما فى ٨ دقائق ، ١ر٩ ثانية .

ولو حاول الإنسان أن يقطع هذه المسافة بطائرة نفاثة سرعتها ٦٠٠ ميل فى الساعة لاستغرق قطعها : لا ٨ دقائق ، ولا ٨ ساعات ، ولا ٨ سنوات ، بل لاستغرق ذلك نحو ١٧ سنة و٦ أشهر ، وذلك بشرط أن تستمر سرعتها هذه بدون توقف ليل نهار ، وأين هى الطائرة التى تسير سنوات دون توقف حتى للتزود بالوقود ؟

فما أعظم سرعة الضوء وما أبلغ تلك السرعة الضوئية الكونية ، ألا تدل على قدرة الله تعالى عز وجل ... نعم : تدلُّ وتدلُّ على عظمة بديع السَّمٰوات والأرض سُبْحَانَهُ .

والشمس قريبة إلى الأرض بالنسبة إلى النجوم الأخرى ، فإن كانت أشعة الضوء تصل إلى الأرض من الشمس فى نحو ٨ دقائق ، فقد أثبت العلم أن هناك نجوما تبعد عنا بملايين السنين الضَّوئية .

وقد اتخذ العلماء السَّنة الضوئية وحدة تقدير المسافات الكونية ، تلك المسافات الكبيرة بين النجوم ، ولتتصوروا عظمة هذا الكون أقول : إن رحلة حول الأرض يقوم بها الإنسان تستغرق أياما أو ساعات أو أشهرًا ، ولكن اللاسلكى يقطعها فى أقل من ٧/١ ثانية وأقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل ضوؤه فى ١٥٫٠٠٠ سنة ، ويعتقد العلماء أن هناك نجوما يصل إلينا ضوؤها فى ألف مليون سنة ضوئية .

وقد أثبت العلم أن النجوم وكل ما فى الوجود يسبح فى الفضاء كأسراب الحمام أو الطير التى تطير بسرعة فى الهواء ، ولكن النجوم تطير فى الفضاء بسرعة كونية هائلة . وفيها ما يدور من أقمار حول الأرض ، ومن أقمار وكواكب حول الشمس ، وهناك ملايين من المجاميع أو مجرات ، وفيها ما فيها ، وكلها تسبح فى الفضاء فى نظام وتنسيق من صنع وإبداع الله الخالق العظيم : ﴿ **لا الشَّمْسُ ينبغى لها أنْ تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ فى فلك يسبحون** ﴾ [يس : ٤٠] .

والمتأمل فى هذا الكون العظيم تأمل العلماء والحكماء ، لا يملك إلا أن يسجد لله خشوعا وتبجيلا وتقديرا لعظمته وجلاله : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينها وعنده علم الساعة وإليه ترجعون .

قال الله تعالى : ﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [الرعد : ٤] .

آية كبرى من آيات الله فى المملكة النباتية ، إنه الجلال والجمال والكمال .

إن عالم النبات يمثل نوعا كبيرا من أنواع الإعجاز الإلهى فى هذا العالم ، فالذى أحيا الأرض الموات وأنبت فيها من كل شىء موزون ، ومن كل زوج بهيج ، قادر أن يبعث الأجساد بعد فنائها وتفرق أجزائها ، وما الإنسان إلا عضو فى المملكة الحيوانية وبينها وبين المملكة النباتية عظيم شبه .

ولبيان هذه الحقائق نستمع إلى صوت العلم فى بيان رائع ، وحقائق ناطقة ، تلهج بالثناء والعرفان على الخالق البديع : الذى أحسن كل شىء خلقه .

حديث العلم

جاء فى كتاب (دلائل الحق فى عظمة الخالق) للدكتور عزت محمد خيرى قوله تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحىّ ذلكم الله فأنى تؤفكون** ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

بعدما ذكر المؤلف هذه الآية الكريمة ، قال : تتنوع صور الحياة وتتشكل ألوانها ، وتتعدد أصنافها ، وتنكشف خواصُّها ، ويدأب العلماء على تقصّى (معرفة وكشف) أسرارها ، والتعرف على أحوالها ومتابعة أطوارها ، ولكن بقى للحياة سرها الأعظم وهو سر الوجود : ﴿ **ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العُلَمَاءُ إن الله عزيز غفور** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وإن كل ما نعلمه عن الحياة فى مختلف صورها ، يتضمن الكثير من التفاعلات الكيميائية ، منها البسيط ومنها المعقد ، ومنها ما زال غير معلوم وإن كان ملموسًا محسوسًا .

ولعل من أبرز ما يميز الكائنات الحية على الجماد ، أنها نباتا كانت أو حيوانا أو إنسانا ، فقد اختصت بالقدرة على النمو والتكاثر ، وإن نتاج كل نوع منها له من دلائل التماثل ما يجعل من اليسير نسبته إلى نفس السلالة من الكائنات الحية ، وتتعدد السلالات وتختلف صفاتها وقد تتشابه فيما بينها فى قليل أو كثير ، وإن عمليات النمو والتكاثر تتضمن تفاعلات كيميائية وأهمها تلك التى تحدث أثناء تكوين الأجنة واكتمال نموها ، وأن نمو كائن جديد يمكن أن يحدث خلال جزء صغير من طور الحياة فى الحيوان ، أو قد يستغرق نموه طوال الحياة .

واستشهد المؤلف بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ [النساء : ١] .

وللنبات والحيوان بصفة عامة المقدرة على استيعاب بعض المواد كالغذاء والماء وإدخالها فى تفاعلات كيميائية ، يصاحبها عادة انطلاق للطاقة وامتصاص لبعض النواتج وتخلص من البعض الآخر ، وتسمى عملية استفادة الكائن بالغذاء الذى يأخذه بعملية الأيض أو التمثيل الغذائى .

ومن خصائص الكائنات أنها تستجيب للأجواء المحيطة بها ، وتتكيف بها ، وتتعامل مع بعضها أو كلها ، فقد ينمو النبات فى اتجاه يأت منه شعاع من ضوء أو طاقة ، كما أن من الحيوان ما تقوده حاسة الشم فيسير وفقا لمدى قوة تأثير رائحة غذاء يفضله ويميزه على حواسه ، وما توجهه إليه غرائزه تبعا لذلك .

ولعل المشكلة العظمى التى ما زالت تواجه العلم والعلماء ، وتستحث البحث والفحص والدرس : هى تعريف (الكائن الحى) تعريفا دقيقا ، وما بالنا بالنسبة لتركيب أنسجته وخلاياه وتوصيف العمليات البيولوجية والكيميائية والحسية والعصبية فيه ، ولعل هذه الحقيقة يمكن فهمها وإدراك ما بعدها إذا علمنا أن الجدل العلمى ظل فترة طويلة يناقش ويمعن فى الشد والجذب حول أبسط أنواع المادة ، فيروسات النبات

التى يظن أن فيها حياة ، فقد تبين أن لهذه الفيروسات القدرة على إحداث صورة بسيطة للتكاثر ، ألا وهى الانقسام إلى كائنات مماثلة مع الفيروس الأصلى تماثلا تاما ، فمثلا فى حالة فيروس ورق الطماطم وجد أن الفيروس الواحد يستطيع أن يحول بعض خلايا ورقة الطماطم إلى عدة كائنات هى أساسا وحدات متكاثرة منه ، إلا أنه قد ثبت أن هذه هى صورة الحياة الوحيدة التى توجد فى الفيروسات النباتية بصفة عامة ، وتظهر وكأنما هى إحدى نماذج تحول كائن يرجى إلى كائن حى ، ولكن هذه الكائنات لا تتمتع بأى صفة أخرى من صفات الحياة ، فهى لا تنمو ولا تستوعب غذاء ، ولا تمثل الغذاء ، كما أنها لا تستجيب للمؤثرات الخارجية بالطريقة التى تحدث فى الكائنات الكبيرة النامية .

ويبقى بعد ذلك سؤال هام ما زال يحير العلماء وهو : هل تعتبر هذه الفيروسات كائنات حية إذا كان الكائن الحى هو ذلك الذى يقدر على القيام بعمليات التمثيل الغذائى (الأيض) والتكاثر والنمو ؟ فإن الفيروسات ما هى إلا جزيئات كيميائية بروتينية معقدة التركيب ، يبلغ وزنها الجزئى ما يقرب من بضع عشرة مليون وحدة ، وأن لها من التركيب الجزئى ما يسمح لها بحفر بعض العمليات الكيميائية فى الأوساط المناسبة تستطيع بموجبها تكوين جزيئات مماثلة لها تماما ، وهذا هو – حتى الآن – التفسير المتعارف عليه بين جمهور العلماء والباحثين ، وبالتالى فلا يمكن أن نسمى ما يتوصل إليه بعض العلماء – مهما جلَّ (عظم) شأن ما يتوصلون إليه من أمثال هذه التحولات التى تظهر إحدى الصور غير المكتملة للحياة – خلقًا لحياة أو استحداثًا لها .

هذه بعض فيروسات النبات ، أما فيروسات الحيوان وهى التى تنمو على أنسجة الحيوان ، فقد تبين أن لها تركيبا محددًا ، وهى أكبر كثيرا من فيروسات النبات ، إذ يبلغ وزنها الجزئى بضعة آلاف مليون وحدة ، كما أنها تمثل الحياة تمثيلا متكاملا ، من أهم خصائصه النمو والتكاثر ، وقد وجد أن الكثير من الكائنات الدقيقة كالخمائر والبكتريا أحادية الخلية لها هذه الخواص .

وقد تكون الخلية محدودة الحجم بحيث لا ترى إلا بالميكروسكوب (المجهر) ، وهذه يبلغ قطر كل منها حوالى جزء من عشرة آلاف جزء من السنتيمتر ، أو قد تكون من الكبر بحيث يبلغ قطرها حوالى المليمتر أو أكثر .

وتتكون الخلية من تركيب دقيق التنظيم ، يتألف من جدار الخلية ، وهو رقيق جدًا يبلغ سمكه بضع مائة من وحدات الأنجستروم (الأنجستر = جزء من مائة مليون من السنتيمتر) وفى داخل هذا الجدار يوجد قوام شبه سائل يتضمن السيتوبلازم وغيره من المركبات ، وتتكون بعض الكائنات الأخرى من تجمعات كبيرة من الخلايا قد تتعدد أنواعها فى الكائن الواحد .

فمثلا تتكون العضلات وجدران الأوعية الدموية والأنسجة الضامة والأعصاب والجلد وغيرها من أجزاء جسم الإنسان من خلايا مترابطة مع بعضها البعض بنظام رتيب وتركيب محدد .

وبالإضافة لهذه الخلايا توجد خلايا أخرى تسبح فى سوائل الجسم وتنتقل من جزء إلى آخر .

ومن أهم هذه الخلايا كرات الدم الحمراء وهى على هيئة أقراص مسطحة ، يبلغ قطر كل منها حوالى ٧٠ ألف وحدة إنجستروم وسمكه حوالى ١٠ آلاف وحدة ، وعدد الكرات الحمراء كبير جداً يبلغ فى الشخص البالغ ما يقرب من خمسة ملايين فى المليمتر المكعب من الدم .

فإذا ما علمنا أن جسم الإنسان يحتوى على ما يقرب من ٥ لترات من الدم ، فإن عدد الكرات الحمراء يبلغ ٢٥٠٠٠ مليار فى الدم ، ويحتوى جسم الإنسان كذلك على عديد من الخلايا الأخرى بعضها يصل قطره إلى حوالى ١٠ آلاف وحدة إنجستروم كخلايا الأعصاب ، وهذه تمتد ما يقرب من ١٠٠ سنتيمتر من الأطراف إلى قمة العمود الفقرى ، ويبلغ عدد الخلايا فى الجسم حوالى ١٠ مليون خلية .

هذا ولا يتكون الجسم البشرى من الخلايا فقط ، ولكنه يحتوى كذلك على العظام ، وهذه تعتبر مخلفات للخلايا الصانعة للعظام ، وتتكون العظام من مركبات غير عضوية وهى فوسفات الكالسيوم الهيدروكسيدية وكربونات الكالسيوم ومركب عضوى يسمى الكولاجين وهو مادة بروتينية .

وبالإضافة لذلك يحتوى الجسم على السوائل وهى : الدم والنخاع ، وسوائل أخرى تفرزها بعض الأعضاء مثل اللعاب والعصارات الهضمية ، وتشتمل هذه السوائل على

العديد من المواد الكيميائية ، ويتحدد تركيب الخلايا بتركيب خلايا الجدران بصفة خاصة ففى النبات تتكون الخلايا أساسا من السليلوز السكرى ، وفى الحيوان والإنسان يمثل البروتين الإطار الأساسى لتكوين الخلايا وجدرانها على حد سواء .

فمثلا تحتوى كل من الخلايا الحمراء فى الدم على ٦٠٪ من الماء ، ٥٪ من مواد متنوعة ، مضافا إلى ذلك ٣٥٪ من الهيموجلوبين ، وهو مركب بروتينى يحتوى على الحديد ، وزنه الجزئى ٦٨ ألف وحدة ، ويتميز بخاصية التفاعل الانعكاسى مع الاكسيجين ، وبالتالى تنظيم امتصاص الاكسيجين وتفاعلاته فى الجسم ، وبهذه الخاصية يمكن للدم أن يتحد مع مقادير كبيرة من الاكسيجين فى الرئتين وينقل بالتالى الاكسيجين إلى الأنسجة فيؤكسد المواد الغذائية ومكونات الجسم الأخرى محدثا الطاقة اللازمة لدفع الحياة وحفظها فى الجسد .

هذا بَعْضٌ من كُلٍّ عن عظمة الخلق وقدرة الخالق الذى وهب الحياة للكائنات وحفظها عليهم ، وخلق من أنواعها وأصنافها وأشكالها بأمر كن فيكون ، وإن خلقه للبشر – أرق أنواع المخلوقات – دليل على إعجاز وقدرة وتمثيل فى قوله تعالى : ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

الخلية وحدة الحياة

وبعد هذا البيان يحدثنا المؤلف عن الخلية فيقول :

(سبحان الله الخالق المصور ، القادر المانع الرزاق الوهاب ، يتجلى فى خلقه ، ويفيض فى نعمائه ، ويربط بين مخلوقاته ، ويوثق الصلة بين موجوداته ، وإذا تأملنا فى خلق الكائنات الحية نباتا أو حيوانا أو إنسانا ، لمسنا وحدة الخلق[1] ووجدناها

(١) بمعنى أن وحدة الخلق تدل على وحدانية الخالق الموحد سبحانه .. يقول : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء** ﴾ [البقرة : ٢١ ، ٢٢ . وينظر تفسيرهما فى ظلال القرآن] .

جميعا ترتبط ببعضها البعض ، وبالكون الذى تعيش فيه من خصائص التكوين ومقومات الحياة . فالشمس والنجوم تنشر الضوء وتشع الطاقة ، والسماء تنزل الماء فيأخذ النبات من الماء والضوء والطاقة ما يوفقه[2] ، ويستخدم منها فى عمليات التمثيل الغذائى والأيض الباقى أو لائتلاف ما يثريه بالمواد الغذائية ويخلصه من المواد الضارة ، والحيوان يأخذ من النبات غذاء والإنسان يأخذ من النبات والحيوان غذاء وكساء ومنافع أخرى عدة ، يقول الله تعالى : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون** ﴾ [المؤمنون : ١٨ – ١٩] .

وإذا تأملنا مرة أخرى فى الكائنات الحية وجدنا أنها جميعا يتكون كل منها من وحدة أو وحدات نباتية تسمى الخلية ، ورغما عن أنه قد تم التعرف حتى الآن على ما يقرب من ٤٠٠ ألف فصيلة نبات .

وضعف هذا العدد من فصائل الحيوان ، فإن خلايا جميع هذه الأنواع المتعددة لها الكثير من الصفات المتشابهة . ولكن التعبير عن تركيب مختلف أنواع الخلايا بما يسمى بالتركيب النموذجى إذ تتكون كل خلية من غشاء وسيتوبلازم ونواة ، وكان يطلق اسم البروتوبلازم على كل المادة الحية فى الخلية ، إلا أنه بعد التعرف على العديد من المكونات أصبح لهذا الاسم أهمية تاريخية فقط ، ويحتوى السيتوبلازم على دقائق عضوية مختلفة من بينها ما يسمى (الميتوكوندريا والليزوزمات والميكروزومات والسنتروزومات) كما يحتوى السيتوبلازم على قنوات دقيقة جدا تسمى قنوات الاندوبلازم ، وكذلك جُسَيْمَات جولجى .

والميتوكوندريا هى الدقائق العضوية التى تحدث عندها تفاعلات التأكسد فى الخلية . أما الليزوزومات فهى مواقع عمليات التميؤ (التحلل المائى) بينما تكون البروتينات فى الميكروزومات وتساعد السنتروزومات عملية انقسام الخلية .

وقد تبين من نتائج البحوث والدراسات العملية أن القنوات الموجودة فى الخلية هى بمثابة أغشية داخلية تربط بين غشاء الخلية وغشاء نواة الخلية ، بينما تعمل جسيمات جولجى على تركيب غشاء حتمية .

(٢) يوفقه (أى يكفيه) أى جعله بقدر معلوم وفقا لمشيئة وقدرة الله تعالى .

وتملأ الخلية – فيما عدا الكائنات العضوية [illegible] مواد غير حية مثل البروتينات ، السكريات والليبيدات والأحماض النووية [illegible] فهي عضوية الشكل ، وتشغل حيزا صغيرا متكتلا . وهي مسئولة عن [illegible] خصائص [illegible] إلى الخلية المتوالدة عنها .

وتحتوى النواة على نوية صغيرة وحبيبات صغيرة يطلق عليها اسم كروماتينات ، ويعتقد أن النوية تسهم فى عملية التحكم فى تكوين البروتينات .

التكوين الكيميائى لخلية نموذجية :

يتكون غشاء الخلية أساسا من مواد متراكبة من البروتينات والليبيدات تسمى (الليوبروتين) ، أما السيتوبلازم فهو وسط شفاف يتراوح فى قوامه بين سائل رقيق إلى هلام جامد . ويحتوى جسيمات ميكرئية والميتوكوندريا غنية بالبروتين وبالليبيدات الفسفورية ، بينما تحتوى جسيمات جولجى على ليبيدات أصلا .

ويتألف السكر الموجود فى الخلية من سكر الجليكوجين فى أغلب الخلايا .

ويتكون البروتين الذى تحتويه الخلايا من فصيلة البروتينات النووية المعروفة (بالريبوز) ، ويتكون البروتوبلازم بصفة عامة من ٧٥٪ من وزنه أو أكثر ماء ، كما يحتوى على الكلوريد والفوسفات والكبريتات وأيونات عناصر البوتاسيوم والصوديوم والمغنسيوم والكالسيوم ، وكذلك مركبات الكبريتات وآثار بسيطة من النحاس والحديد والمنجنيز واليود ، وبالإضافة إلى ذلك توجد فيه البروتينات والسكريات والليبيدات ، ويؤدى وجود مقادير كبيرة نسبيا من البروتين فى الخلية إلى اتخاذها صفات غروانية .

هذا كله يأتلف ويتجمع وينتظم فى الخلية وحدة كل كائن حى ، وما الخلية إلا جسم صغير لا يرى إلا بالميكروسكوب ، حقا إنها من صنع الله القادر الخلاق .

وما بالنا بطريقة تجمع هذه الخلايا وترابطها وانتظامها وتكاملها لتكوين الكائن الحى بمختلف فصائله وأصنافه وأنواعه ، وصدق الله العظيم فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**

ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ۞ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ﴾ [الحج : ٥ ، ٦]

ومما سبق يتبين [illegible] من المركبات التى تدخل فى تكوين الخلية هى مواد كيميائية يمكن تحضيرها بيسر فى المعمل وحفظها على رفوفه ، ولكن العجب أنها عندما تنتظم بأمر خالقها وتمتص ما يكفيها من الطاقة تدب فيها الحياة ، إنها من لدن الخالق الواحد الأحد القيوم العزيز القدير سبحانه وتعالى .

وتتميز جميع الخلايا الحية بخصائص مشتركة – أيا كان مصدر هذه الخلايا – تميزها عن المادة غير الحية ، ومن أهم هذه الخصائص أنها تقوم بنوع عمليات الأيض ، أى أنها تأخذ المواد الخام وتجرى عليها من التغيرات ما يلزم لتكوين مركبات الخلية ، وكذلك ما تحتاجه من الطاقة ثم تتخلص عن طريق عملية (إخراج) مناسبة من النفايات التى لا تحتاجها .

وهى عمليات كيميائية وحيوية معقدة ، وتصاحب عمليات الأيض عمليات تنفس مناسبة ، وتتميز الخلايا الحية كذلك بخاصيتين أساسيتين هما (النمو) و(التكاثر) وعن طريقها يتم حفظ النوع كما تعتبران صنوان للحياة فى الخلية .

ومن الصفات الهامة للخلية الحية أنها تتجاوب مع الظروف البيئية المحيطة بها إما بالتنافر والرفض أو بالملائمة ، وهذا أيضا من مظاهر الحياة فى الخلايا ، وحتى النباتات التى تنمو تحت ظروف ثابتة خلافا للحيوان الذى ينتقل من مكان إلى آخر ، فإنها تلائم نفسها مع البيئة بما يحفظ عليها الحياة ، فنجد أن بعضها يمد أغصانه لتصل الماء ليعوض ما ينقصه عن طريق الجذور .

ومنها ما يتحرك بمواجهة مشرق الشمس يمتص ما يحتاج من طاقة ، وعلى ذلك فيمكن القول أن الخلايا تمارس الحركة ، هذا وفى حالات قليلة قد تحتفظ بعض الخلايا – بصفة مؤقتة – ببعض الصفات الحية وليس بكلها ، فمثلا يمكن تجميد بعض الفيروسات وبلورتها ، وبالتالى فإنها تبدو كما لو كانت غير حية ، ولكنها إذا ما غمرت فى وسط مناسب ، فإنها تنشط فتنمو وتتكاثر لتوها ، وتنشأ الفروق الخاصة بين خلية

وأخرى من نوع آخر من اختلاف المركبات المكونة لها من حيث المقادير النسبية التى توجد عليها وسرعة تفاعلها مع بعضها والترتيب الهندسى لها ومواضعها فى الخلية .

فمثلا تحتوى الكرات الحمراء فى الإنسان على الهيموجلوبين الذى يشتمل على الحديد ، والهيموجلوبين هو الذى يساعد على نقل الاكسيجين إلى الخلايا الأخرى فى الجسم . وتحتوى الخلايا السطحية للجلد على بروتينات غير قابلة للذوبان ، ومن ثم فإنها تصلح كغشاء يضم الجسد ويزوده بالحماية ضد الضربات أو الصدمات ، وكذلك من أضرار التعرض للمواد الكيميائية ، وتتشكل خلايا الأعصاب بما يلائمها لنقل النبضات والإشارات الكهرومغناطيسية بينما تحتوى خلايا العضلات على مركبات تستطيع أن تتفاعل بحيث تحدث انكماشا فى الخيوط النسيجية .

موت الخلايا :

إذا ماتت مادة حية فمعنى ذلك أنها توقفت عن القيام بأنشطتها التى تميز الحياة فيها ، ويدل ذلك على أن خلاياها فقدت صفاتها الذاتية من حيث التكوين والوظيفة ، إما لتغير جذرى فى أعدادها أو صفاتها أو فى مكوناتها البروتوبلازمية . وقد يكون هذا التحول نتيجة لدورة الحياة فى الخلية أو لتغير فى الظروف المحيطة بها أو لكلا العاملين أو قد يكون بسبب عوامل أخرى مما يختلف حسب الأحوال ، فمثلا يحدث للإنسان أثناء حياته العادية أن تموت بعض خلاياه متحولة إلى مواد نافعة غير حية فتتحول بعض الخلايا السطحية فى الجلد إلى أجزاء ميتة من الجلد أو الأظافر .

هذا وقد لوحظ حدوث تغيرات فى خلايا معينة فى جسم الإنسان نتيجة لتقدم السن ، فمثلا لوحظ فى بعض الطاعنين فى السن أن خلايا الأعصاب وهى أطول خلايا الجسم عمرا تحتوى أعدادا متزايدة من حبيبات الليبيدات نتيجة لتغيرات كيميائية مما يجعلها تفقد جزءا من انتظام توزيعها مما يؤدى إلى تغيرات عصبية مختلفة فى مثل هذه الأحوال .

ويحدث لبعض خلايا أنسجة المفاصل أن يقل محتواها من بروتين الألبومين (زلال البيض) ويصاحب ذلك ترسب الكالسيوم مما يجعلها تفقد مرونتها كما يحدث لبعض خلايا العظام أن تموت فتترك العظام هشة ، أما خلايا الغدد فتختلف درجات تغيرها مع السن .

ومن أظهر التغيرات أن غدد الادرينال ترسب الكولاجين نتيجة لتلاشى بعض الخلايا . ويقل العد الليمفوسينى للدم بمرور السن ، كما تؤدى الزيادة فى رواسب الكولسترول داخل جدران الأوعية الدموية التى تصلها مما يؤدى إلى زيادة ضغط الدم ، وبالتالى إلى زيادة التعرض للجلطة الدموية ، ويحدث ذلك نتيجة لاضمحلال بعض الخلايا فى هذه الأوعية .

وبعد فهذا بيان عن عظمة خالق الوجود تتجلى فى وحدة الحياة الحية، والله هو واهبها ومَشكِّلُها ومُنَظِّمُها فى شتى المخلوقات، سبحانه القادر العزيز المتعال: **﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾**[الملك: ٢٣].

وبعد ، فمعذرة للقارىء إن كنا قد أطلنا فى إثبات هذه الحقائق العلمية ، لكنها توصلنا إلى حقيقة لا مراء فيها وإلى نتيجة لا يعتريها شك ولا يشوبها ريب ، إن هذه الحقيقة تؤكد أن الإنسان والنبات كل منهما يمثل حقيقة لا تختلف ، ويشترك كل منهما فى صفات لا تفترق ، فإذا كان النبات يحصد ثم يبذر فينبت مرة أخرى ، فأى مانع يمنع من إعادة الإنسان بعد فنائه ، وأى عقبة تحول دون ذلك ؟ إذا كنا قد علمنا أن المبدىء والمعيد هو الله الذى أثبت هذه الحقيقة فى قوله : **﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾** [نوح : ١٧ - ١٨] .

نعم .. لقد أطلنا فى ذكر الحقائق العلمية التى أثبتت لنا بما لا يدع مجالا للشك وجوه الشبه(١) القوية بين النبات والإنسان ، مما يؤكد لنا عظمة القرآن فى تعبيره عن خلق الإنسان بالإنبات ، فلم يقل تعالى : والله أنشأكم من الأرض إنشاءا إنما قال : **﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾** ليضع أيدينا على حقيقة كبرى تنادينا بأعلى صوتها ، وتقول : لم تنكرون البعث بعد الموت ؟ وما وجه إنكار ذلك ؟ وأمامكم البعث يتحقق كل يوم وكل ساعة .. بل كل لحظة فى هذا الوجود الواسع الممتد الرحب .

ألست يا ابن آدم كنبات هذه الأرض ؟ ألست يا ابن آدم تضع الحبة فى ظلمات الأرض فتنمو كما تضع النطفة فى ظلمات الرحم فتنتقل من طور إلى طور من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى جنين إلى طفل يأخذ طريقه فى الحياة : **﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾** [نوح : ١٣ - ١٤] ؟ ألست يا ابن آدم تحصد

(١) أقول : التطابق لأن النوعين وجهان لحقيقة الوجود العظمى الواحدة .

نبات إذا أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه تحصده مناجلك .

أليس ملك الموت يحصدك عندما يبلغ الكتاب أجله : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾ [الأنعام : ٦١ - ٦٢] .

ألست يا ابن آدم تذهب بالنبات بعد إستحصاده (أى : حصاده وقطعه) محمولا على ظهور الأهل والدَّوابّ إلى الأجران .

ألست يذهب بك بعد موتك محمولا على خشبة حدباء إلى أجران المقابر .

ألست يا ابن آدم تأتى بالنوارج لتدوس على النبات فتدرسه ؟

ألست يأتيك الدود فيدرسك فى أجران المقابر ... ثم تَعالَ بعد ذلك : (أى : أنظر وانتبه) .

ألست تأخذ الحب الحصيد فتبذره فى الأرض فيخرج نباتا مرة أخرى .

أليست هذه حقيقة ملموسة لا ينكرها من كان عنده أدنى تفكير .

ألم ينبت النبات بعد أن درسته النوارج ؟ فلماذا تستبعد بعثك بعد موتك ؟ وأنت تسير مع النبات طورا بعد طور ، وحالة بعد حالة ، ومرحلة عقيب مرحلة .

إنه لا ينكر هذه الحقيقة إلا من سلب عقله فأصبح لا يميز بين الليل والنهار ، ولا يجادل فى هذه القضية إلا من وضع قلبه فى أكنة وفى آذانه وقر وعلى بصره غشاوة : ﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا** ﴾ [الكهف : ١٠٠ - ١٠١] .

﴿ **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ [فصلت : ٥] .

سبحانك ربى يا من قلت وقولك الحق : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا** ﴾ [نوح : ١٧ - ١٨] .

يا من قلت وقولك الصدق : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤهم من فضله إنم فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ [الروم : ١٧ - ٢٧] .

البعث حق

إن قضية البعث فى القرآن جاءت مقترنة بتوحيد الله والإيمان به .

من ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ [النور ٢] . وقوله جل شأنه : ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا** ﴾ [البقرة ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات ، ولأهمية البعث ترى أن الله تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ بالقسم فى ثلاثة مواضع وكلها فى البعث .

قال تعالى : ﴿ **ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين** ﴾ [يونس : ٥٣] .

ويقول تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾ [سبأ : ٣] .

وقال جل جلاله : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ [التغابن : ٧] .

من هنا نعلم أن الله تبارك وتعالى أكد هذه القضية توكيدا لا يحتمل أى لبس ولا غموض .

إن الله جل جلاله ينبه أصحاب الأذهان الغافلة والقلوب الجاحدة إلى ما ردده المنكرون من قبل فيقول : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بل وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ [النحل : ٣٨ - ٤٠] .

القرآن والبعث

وإذا كان القرآن الكريم قد تناول هذه القضية فى أعلى طبقات البلاغة والقوة فإنه يعرض للبعث فى أساليب غاية فى الجلال والجمال والعظمة وقد عرضنا مشهدا فى سورة الرعد حيث قدم القرآن الأدلة القاطعة على قدرة الله فى العالم العلوى والأرض ثم عقب على ذلك بقضية البعث وألقى باللائمة على منكريها وجاحديها .

قال تعالى : ﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد** ﴾ [الرعد : ٥] .

وفى سورة (ق) يعرض القرآن القضية ثم بعد ذلك يقيم الأدلة على القدرة الفائقة التى لا يقف أمامها شىء . قال سبحانه : ﴿ **ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هـٰذا شىءٌ عجيب . أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد** ﴾ [ق : ١ - ٣] .

يرد القرآن على هذه الدعوى ردًا حاسمًا ، فيقول تعالى : ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج** ﴾ [ق : ٤ - ٥] .

ثم يقيم الأدلة الباهرة فيقول سبحانه: ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها** وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل

زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ [ق : ٦ - ١٠] .

فأنت ترى فى هذا المشهد القرآنى من سورة ق ، كيف سجل القرآن العظيم كلام المنكرين الجاحدين ، الذين ظنوا أن الرجع والإعادة ، والإحياء بعد الموت بعيد ، فأقام القرآن من الأدلة ما يثبت أن الإعادة أهون من البدء ، وأن الإيجاد بعد الفناء أيسر من الخلق من العدم : ﴿ **أفلا ينظرون إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج** ﴾ .

ثم يسأل القرآن : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها** ﴾ .

ثم يحث على هذا السؤال فى روعة وجلال : ﴿ **لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

ثم يبين أن الذين لا يعرفون هذا قوم أصيبوا بعمى القلوب وانطماس البصائر .

فيقول سبحانه : « **وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما تتذكرون** » .

ثم يخلص من هذا إلى نتيجة تقرر أن البعث حق لا ريب فيه على الرغم من جحود الجاحدين ، فيقول جل جلاله : ﴿ **إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ .

وبعد أن يقيم القرآن أدلة القدرة الفائقة من رفع السماء وبسط الأرض : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** ﴾ [سورة ق] .

بعد ذلك يقيس البعث على هذه الآيات المشاهدة أمام العين والتى لا ينكرها عاقل ولا يجحدها من رزق أدنى علم ، فيقول سبحانه فى كلمة موجزة المبنى عظيمة المعنى :

﴿ كذلك الخروج ﴾ أى الخروج من القبر بعد الموت يوم البعث مثل ذلك ، فكما أن ذلك الذى سبق ذكره واقع ومشاهد ، فالبعث مثله ، وكما أنكم لا تنكرون آيات الله فى كونه من سمائه إلى أرضه ومن عرشه إلى فرشه ، فإن العدل والمنطق يقتضيان منكم ألا تنكروا البعث بعد الموت ، إذ أن الذى أخبر عنه هو الله الحى المميت المبدىء المعيد الضار النافع الخافض الرافع القابض الباسط الواحد الماجد الواجد القهار الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور العزيز الحكم العدل الرزاق ذو القوة المتين الذى إذا أراد قضى المراد وإذا حكم فلا معقب لحكمه وإذا قضى فلا راد لقضائه .

وفى سورة النبأ وهو البعث يصدر القرآن هذه السورة الكريمة بسؤال ثم يجيب عنه ويعرض بعد ذلك الأدلة على القدرة الفائقة ثم يعقب بالنتيجة ، كل هذا فى سِلْكٍ فريد وعقد نظيم ، يأخذ بالألباب ، ويدهش العقول لعظمته .

اقرأ قول الله جل جلاله : **﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ﴾** .

ثم يخلص إلى النتيجة بعد ذلك فى جلاء ووضوح فيقول سبحانه : **﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾** .

كل هذا يدور فى فلك السورة الكريمة التى تعرض للقضية فى جلاء ووضوح وقوة وحزم : **﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾** .

ويؤكد هذا المعنى فى قوله : **﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾** .

ويرد القرآن على هذا الإنكار فيقول : **﴿ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾** .

جدد السفينة فإن البحر عميق

ويحسن بنا ونحن أمام الوعد الحق والبعث بعد الموت ، أن نسلك بك أيها القارىء إلى طريق النجاة ، ماذا أعددت من زاد ليوم الميعاد ؟

صم عن الدنيا، وافطرعلى الموت، وأعدالزاد لليلةصبحها يوم القيامة. وخير الزاد التقوى، وما كان عليه سيد الأتقياء محمد ﷺ من الخلق الكريم والقلب الرحيم.

اسمع إلى هذه الوصايا الغوالى ، وإلى تلك النصائح العوالى ، عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : **« ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار »**(١) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب فى الله ويبغض فى الله ، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا »** [رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى »** [رواه مسلم] .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله »** [رواه الحاكم] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : **« سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل وشاب نشأ فى طاعة الله ورجل قلبه معلق فى المساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب**

(١) ينظر : فتح البارى ط السلفية جـ ١ باب الإيمان ط السلفية

وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » [رواه البخارى ومسلم وغيرهما] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حبا لصاحبه »** [رواه الطبرانى وأبو يعلى وابن حبان ورجاله رجال الصحيح] .

وعن أبى إدريس الخَوْلانى قال : دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا ، وإذا الناس معه ، فإذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا معاذ بن جبل ، فلما كان من الغد هَجَّرْتُ فوجدته قد سبقنى بالتهجير ، ووجدته يصلى فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت له : والله إنى لأحبك لله ، فقال : آلله . فقلت : آلله . فقال : آلله . فقلت : آلله فأخذ بِحُبْوة ردائى فجذبنى إليه فقال : أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتى للمتحابين فىّ وللمتجالسين فىّ وللمتزاورين فىّ وللمتبادلين فىّ »** [رواه مالك بإسناد صحيح وابن حبان فى صحيحه على شرط الشيخين] .

عن أبى مسلم قال : قلت لمعاذ : والله إنى لأحبك لغير دنيا أرجو أن أصيبها منك ولا قرابة بينى وبينك . قال : فلا شىء ؟ قلت : لله . قال : فجذب حُبْوتى ثم قال : أبشر إن كنت صادقا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« المتحابون فى الله فى ظل العرش ، يوم لا ظل إلا ظله ، يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء »** .

قال : ولقيت عبادة بن الصامت فحدثته بحديث معاذ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول عن ربه تبارك وتعالى : **« حقت محبتى على المتحابين فىّ ، وحقت محبتى على المتناصحين فىّ ، وحقت محبتى على المتباذلين فىّ . هم على منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء والصديقون »** [رواه ابن حبان فى صحيحه ، وقد رواه أحمد فى مسندى معاذ وعبادة] .

وروى الترمذى حديث معاذ فقط ولفظه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« قال الله عز وجل : المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء »** وقال : [حسن صحيح] .

وعن شرحبيل بن السمطِ أنه قال لعمرو بن عَبَسة : هل أنت محدثى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه نسيان ولا كذب ؟ قال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« قال الله عز وجل : قد حقت محبتى للذين يتحابون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتباذَلون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتصادقون من أجلى »** [رواه أحمد ورواته ثقاة واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : **« إن لله جلساء يوم القيامة عن يمين العرش – وكلتا يدى الله يمين – على منابر من نور وجوههم من نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين »** . قيل يا رسول الله : من هم ؟ قال : **« هم المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى »** [رواه أحمد] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« إن من عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء والشهداء »** . قيل : من هم لعلنا نحبهم ؟ قال : **« هم قوم تحابوا بنور الله ، من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر** من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس . ثم قرأ : ﴿ ألا

إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ » [رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له وهو أتم] .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عبادًا يجلسهم يوم القيامة على منابر من نور ، يغشى وجوههم النور حتى يفرغ من حساب الخلائق » [رواه الطبرانى بإسناد جيد] .

وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : المتحابون بجلالى فى ظل عرشى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظلى » [رواه أحمد بإسناد جيد] .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليبعثن الله أقواما يوم القيامة فى وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء » ، قال : فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يا رسول الله جلهم (أى : صفهم) لنا نعرفهم . قال : « هم المتحابون فى الله من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله ، يذكرونه » [رواه الطبرانى] .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة لعمدًا من ياقوت ، عليها غرف من زبرجد ، لها أبواب مفتحة تضىء كما يضىء الكوكب الدرى » قال : قلنا يا رسول الله من يسكنها ؟ قال : « المتحابون فى الله والمتباذلون فى الله والمتلاقون فى الله » [رواه البزار] .

وروى عن معاذ بن أنس رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان قال : « أن تحبَّ لله وتبغض لله ، وتُعمِلَ لسانَك فى ذكر الله » . قال : وماذا يا رسول الله ؟ قال : « وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره ما تكره لنفسك » [رواه أحمد] .

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه » [رواه أحمد والترمذى] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله » [رواه أبو داود] .

وقد جاء فى الحكمة للإمام على الرضا رضى الله عنه :

من نازع الاقبال فى امرهم
بات بعيد الراس عن جثته
من لاعب الثعبان فى كفه
هيهات ان يسلم من لسعته
من عاشر الأحمق فى حاله
كان هو الأحمق فى عشرته
لا تصحب النذل فتردى به
لا خير فى النذل ولا صحبته
من اعتراك الشك فى جنسه
وحاله فانظر إلى شيمته
من غرس الحنظل لا يرتجى
ان يجتنى السكر من غرسه
من جعل الحق له ناصرًا
ايده الله على نصرته

وفى رواية للبخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه : أن رجلا من أهل البادية أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : « وما أعددت لها » ، قال : لا شىء إلا أنى أحب الله ورسوله . قال : « أنت مع من أحببت » . قال : ونحن كذلك ، قال : نعم ، ففرحنا يومئذ فرحًا شديدا . قال أنس : فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحُبّى إياهم[1] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى » [رواه ابن حبان فى صحيحه] .

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث هن حق : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، ولا يتول الله عبدا فيوليه غيره ، ولا يحب رجل قوما إلاحشر معهم » [رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط بإسناد جيد] .

(١) منتقى الترغيب والترهيب - جـ ٢ ، ص ٧٩٠ .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث أحلف عليهم : **لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتول الله عبدًا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم** » [الحديث رواه أحمد بإسناد جيد] .

وعن عبد الأعلى عنها رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا فى الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شىء من الجور وتبغض على شىء من العدل وهل الدين إلا الحب والبغض**(١) . **قال الله عز وجل : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ [آل عمران : ٣١]** » [رواه الحاكم] .

ثمرات الحب فى الله

أولا : يتذوق حلاوة الإيمان فيسرى بجسمه النور المحمدى ، ويتغذى بلبان الإسلام فيحيا حياة السعداء .

ثانيا : يحيطه الله برحمته ، ويقيه عاديات شدائد يوم القيامة .

ثالثا : يجلب له الأمن والسرور ، ويعد فى مصاف السبعة الذين يظلهم برضوانه وإحسانه .

رابعا : شجرة إيمانه مورقة مزهرة مباركة كاملة .

خامسا : دليل على زيادة محبة الله ورسوله .

سادسا : برهان القبول وعنوان التوفيق .

سابعًا : زيادة درجات فى الجنة بجوار منازل الأبرار .

ثامنًا : قلوبهم مطمئنة آمنة من الأهوال ، تتلألأ وجوههم نورا وسرورا .

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٢ ط الشعب ص ٢٥ آية (٣١) الحديث وعبد الأعلى قال أبو زرعة عنه : منكر الحديث .

تاسعًا : عروة الإيمان الوثقى من تمسك بها نجا .

عاشرًا : بشائر الأعمال الصالحة الموصلة إلى قبول الله ، المشوبة بالإخلاص لله ، الدالة على الهداية والنجاح .

الحادى عشر : يحشر مع الصالحين .

الثانى عشر : سلوك حسن وصحبة نافعة وسيرة طيبة ونية صالحة وعيشة سعيدة .

الثالث عشر : له نصيب فى الخير وسهم فى الأجر .

الرابع عشر : يدل على كمال الدين وصفاء السريرة والعمل المتقن وخوف الله ورعاية جانبه واحترام كتابه وحب سنة حبيبه ﷺ .

الخامس عشر : لا يتسرب إلى من يحب لله الإشراك بالله ، لأنه يأمن عواقب أعماله ، ويضمن إخلاصه ويسلم من شوائب الإلحاد .

أَكْثِرْ مِنَ الزَّادِ فَإِنَّ السَّفَرَ طَوِيلٌ

نعم ، إن السفر طويل ، فصم عن الدنيا ومعاصيها ، وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

ما أطول السفر لأنه فى عالم البرزخ ، وما وراء البرزخ أعنف من أن يشق (يمخر) عبابه سباح ماهر : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى**

سلطانيه. خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين. فليس له اليوم ها هنا حميم. ولا طعام إلا من غسلين. لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ [الحاقة : ١٣ - ٣٧] .

صدقت يارب العزة وبلغ رسولك .

اخا الإسلام :

أعد قراءة هذا المشهد مرة ومرة ، فإنه يصوّر لك بكلّ دقة مدى طول السفر ، ويشرح لك بتفصيل ما سوف يجرى علينا ونحن فى عالم البرزخ :

أرض تدك بالجبال .

وسماء تنشق وتنفطر .

وجنة تنادى على أحبابها .

وجحيم تسعر لأعداء الله .

فاستعدوا لأهوال القيامة يا أولى العقول والألباب وأنشدوا :

مـثل لقلـبك ايهـا المغـرور
يوم القيامة والسماء تمـور
قد كورت شمس النهار وضعفت
حرًا على رأس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت باصولها
فرايتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت
وتبدلت بعد الضياء كـدور
وإذا العشار تعطلت عن اهلها
خلت الديار فما بها معمور
وإذاالوحوش لدىالقيامة احضرت
وتقول للأملاك اين نسيـر

فيقال سيروا تشهدون فضائحا
وعجائبا قد احضرت وامور
وإذا الجنيـن بامـه متعلـق
خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بـلا ذنب يخـاف لهولـه
كيف المقيم على الذنوب دهور

اخا الإسلام :

هلا أكثرت من الزاد لطول السفر ؟

أو لم تسمع ما رواه عبد الله بن مسعود من قول رسول الله ﷺ : « **التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه ومن أذى مسلما كان عليه من الذنوب مثل منابت القمل** » [رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرفوعًا حتى (بربّه)] .

وفى الحديث : « **الندم توبة** » [رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد] .

وقد سئل الحسن البصرى رضى الله عنه عن التوبة النصوح فقال : هى الفزع بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والترك بالجوارح ، والإضمار (أى : النية) على أن لا يعود .

وسمع سيدنا على رضى الله عنه أعرابيا يقول: اللهم إنى استغفرك وأتوب إليك. فقال: يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين. فقال: وما التوبة؟ قال: إن التوبة يجمعها ستة أشياء: الندم على الماضى من الذنوب، وقضاء الفرائض الفائتة مع الحاضرة، ورد المظالم واستحلال الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود للذنب وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصى.

والتوبة بصفتها المذكورة هى المنجية لصاحبها من العقاب ، يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه ابن عساكر عن أنس : « **إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله تعالى وليس عليه من الله شاهد بذنب** » .

اخا الإسلام :

ما فى الحياة بقـاء
ما فى الحياة ثبـوت
نبنى البيوت وحتمـا
تنهـار تلك البيـوت
تموت كل البرايـا
فسبحـان من لا يمـوت

دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال : فأخبرنى كيف القدوم على الله . فقال : يا أمير المؤمنين : أما المحسن فيقدم على الله كالغائب يقدم على أهله ، وأما المسىء فيقدم على الله كالعبد الأبق لسيده يأتى مولاه خائفا حزينا . قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم . قال : أى الدعاء أفضل ؟ قال : دعاء الملهوف لمن أحسن إليه . قال : أى الصدقة أوفى ؟ قال : أن لا تعلم يسراه ما أنفقت يمينه . قال : فأى القول أفضل ؟ قال : كلمة حق عند من يخاف . قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ودل الناس عليها . قال : أى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنياه . قال : عظنى وأوجز . قال : نزه رَبَّكَ وعظِّمْهُ أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك .

فبكى الأمير ، فقال رجل من جلسائه : أبكيت أمير المؤمنينَ أَوْ أحزنته ، فقال : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، ثم خرج فبعث إليه مجلى فرده وقال : لا أرضاه لكم فكيف آخذه منكم .

جملة من وَصَايَا الرسول ـ ﷺ ـ

من وصايا رسول الله ﷺ ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : أوصانى رسول

الله ﷺ فقال لى : **« أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على من لقيت تكثر** حسناتك ، وإذا دخلت على أهل بيتك فسلم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، وأرحم الصغيرَ ووقر الكبيرَ ، تكن من رفقائى يوم القيامة » .

ومن وصاياه لأبى ذر : **« أحكم السفينةَ فإن البحر عميق ، واستكثر الزَّاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير »** .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبى ذر أيضا قال : أوصانى خليلى محمد ﷺ بثلاث قال : **« اسمع واطع ولو لعبد مجدوع ، وإذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت جيرانك فأصبهم بِمَغْرَفَيْك ، وصل الصلاة لوقتها »** .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبى ذر رضى الله عنه أيضا قال : **« أوصانى خليلى بسبع لم أتركهن ولا أتركهن : أوصانى بحب المساكين والدنو منهم ، وأن انظر إلى من هو أسفل منى ولا انظر إلى من هو فوق ، وأن أصل رحمى وإن أدبرت وقطعت ، وأن استكثر من قول لا إله إلا الله إنها كنز من كنوز الجنة ، وأن لا أسأل الناس شيئا ، وأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأن أقولَ الحق وَإنْ كَانَ مُرًّا »** .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : **« أوصانى خليلى ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد »** .

وعن أبى هريرة أيضا : **« علمنى رسول الله ﷺ ثلاث خصال لا أدعهن حتى أموت : لا أنام إلا على وضوء ، وأن أصوم كل شهرٍ ثَلاثَةَ أيام ، وأن لا أدع صلاة الضحى »** .

ومن وصاياه ﷺ قوله لعائشة : **« إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلفى ثَوْبًا حتى تُرَقِّعِيه »** .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : **« خدمت النبى ﷺ وأنا ابن ثمان سنين فكان أول ما علمنى أن قال : أحكم وضوءك لصلاتك يحبك حفظتك ويزد فى عمرك . يآ أنس يا بنى : اغتسل من الجنابة وبالغ فيه ، فإن تحت كل شعرة**

جنابة » قلت : يا رسول الله كيف أبالغ فيها ؟ قال : « يا أنس أَدْلِكْ جميع بدنك ، وافض الماءَ حَتّى يبلُغ إلى جَميع بَشْرَتِك ، ورد أصول الشعر ، وانق بشرتك ، تخرج به مغتسلك وقد غفر ذنبك ، يا بنى : لا تفوتنك ركعتا الضحى ، فإنها صلاة الأوابين ، وأكثر الصلاة بالليل والنهار ، فإنك ما دمت فى الصلاة فإن الملائكة يصلون عليك . يا أنس إذا قمت إلى الصلاة فانصب نفسك لله تعالى ، وإذا ركعت فاجعل راحتك على ركبتك وفرج بين أصابعك وارفع عضديك عن جنبك ، وإذا رفعت رأسك فقم حتى يعود كل عضو إلى مكانه وإذا سجدت فألزم وجهك بالأرض ، ولا تنقر نقر الغراب ، ولا تبسط ذراعيك بسط الثعلب ، وإذا رفعت رأسك من السجود فلا تقع كما يقع الكلب ، وضع اليتك بين قدميك ، والزم ظاهر قدميك بالأرض ، فإن الله تعالى لا ينظر إلى صلاة لا يتم ركوعها وسجودها ، وإن استطعت أن تكون على الوضوء فى يومك وليلتك فافعل ، فإنه إن يأتك الموت وأنت على ذلك لم تفتك الشهادة . يا أنس لا تبيتن ليلة ولا تصبحن يوما وفى قلبك غش لأحد من أهل الإسلام فإن هذا من سنتى ، ومن أخذ بسنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى فهو معى فى الجنة . يا أنس إذا عملت هذا وحفظت وصيتى فلا يكون شىء أحب إليك من الموت فإن فيه راحتك »[1] .

ومن وصاياه ما روى عن معاذ بن جبل قال : قلت يا رسول الله : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ؟ قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وَتُؤْتِى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة (أى : وقاية) ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ : ﴿ يعملون ﴾ » . ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . قلت : بلى يا رسول الله . قال : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد » .

(1) ويرجع فى شأن هيئات الصلاة لاحدى موسوعات الفقه الإسلامى الموثقة مثل : المغنى لابن قدامة ط مطبعة مكتبة القاهرة بالصنادقية - الأزهر الشريف .. لكن وهذه وصايا فإننا بحاجة ملحة إلى ما فيها من ترغيب وتربية للنفس البشرية لاستكمال عُرى الإيمان وأركان الإسلام وبلوغ درجة الإحسان ... آمين .

ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : « كف عليك هذا » قلت : يا رسول الله : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمكَ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال - على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » .

وقد سار على ذلك النهج القويم والصراط السوى المستقيم الصحابة والتابعون والعلماء الأجلاء العاملون . فكم بذلوا إلى الخلق من النصح الأتم ، وكم حَضّوا على ما فيه النفع الأعم ؟

اخلص العمل فإن الناقد بصير

كتب الإمام الغزالى رضى الله عنه إلى الشيخ أبى الفتح بن سلامة : فزع سمعى أنك تلتمس منى كلاما وجيزا فى معرض النصح والوعظ ، وإنى لست أرى نفسى أهلا له ، فإن الوعظ زكاة نصابها الإتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟

وقد أوصى الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام : يا ابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستح منى .

وقال بعض العارفين : من علم فليعمل ، ومن جهل فليسأل ، فاليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب بلا عمل ، والعلم إمام والعمل تابع ، ومن لم يمش على الجادة ، ولا سلك بنفسه سبيل الاستقامة ، كيف ينصح سواه ويعظ غيره ؟ وإن نصح أو وعظ لا تنفع موعظته ، ولا تقبل نصيحته ، فقلّما ينتفع بوعظ الواعظ ، ونصح الناصح ، إذا لم يكن متصفا بنفسه بالصفات الجيدة المرضية التى ندب الشارع إليها وحض عليها ، فالموعظة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب (يشير إلى القدوة المخلصة لله تعالى وحده) .

وقد علق الشارع الوعيد الشديد على من أمر بالمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن المنكر وفعله .

ومن صفاته عليه الصلاة والسلام أنه كان لا يأمر بشىء إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شىء إلا كان أول تارك له .

وقال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ روى أنها نزلت فى اليهود ، إذ كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون . وفى الآية وعيد شديد لمن اتصف بصفاتهم ، وفعل مثل فعلهم . ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ توبيخ عظيم ، وتشنيع فعيم (من الإفعال) والأحقية والثقل . والمعنى : أفلا تفطنون لقبيح ما ارتكبتم ، وشنيع ما تعاطيتم ، كأنه جعلهم مَسْلُوبِى العُقُول ... لأن العقل يأبى هذا .

وقال البزار عن أبى برزة أن النبى ﷺ قال : « **مثل الذى يعلم الخير للناس وينسى نفسه مثل الفتيلة تضىء على الناس وتحرق نفسها** » وفى رواية الطبرانى : « **كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه** » [رواه الطبرانى فى الكبير – عن جندب بن عبد الله الأزدى رضى الله عنه – وإسناده حسن إن شاء الله تعالى] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **من أراد أن ينصب نفسه إماما فعليه بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم** » .

وقد حكى أن رجلا كان يجلس قريبا من محمد بن واسع فسمعه ابن واسع يوما يعظ أصحابه ويوبخهم وهو يقول : ما لى أرى القلوب لا تخشع ؟ وما لى أرى العيون لا تدمع والجلود لا تقشعر ؟ فقال له ابن واسع : يا عبد الله ما أرى القوم أتوا (أى : بعدم الخشوع) إلا من قبلك ، إن الذكر إذا خرج من القلب استقر فى القلب .

وقيل لحمدون العقار : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق (كفى بها موعظة وتذكرة) .

كلمة حق خالدة

قال الله تعالى : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة**

وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

ويقول عز من قائل : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾ .

ويقول تبارك اسمه : ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا** ﴾ .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « **اثنان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمراء** » .

وها هو ذا التاريخ المجيد ، تاريخ الإسلام الخالد ، يحدثنا عن رجل من رجالات الأمر بالمعروف الذين إذا قالوا فإنما يضعون أرواحهم على أكفهم رخيصة فى أسواق الشهادة ، وهذا الرجل لم يقف التاريخ على اسمه ولكنه دخل التاريخ من أشرف أبوابه وأوسعها ، وما أكثر هؤلاء الجنود المجهولين الذين وقفوا المواقف الجليلة الجديرة بأن تسجل بحروف الذهب على صفحات النور ، ولندع الحقائق تكلمنا ولنصغ إلى صوتها فى خشوع وأدب .

روى أن عبد الملك بن مروان خطب يوما ، فلما انتهى إلى موضع الوعظ فأحسن كل الإحسان إليه ، قام رجل من الحاضرين فقال : إنكم أيها الملوك تأمرون فلا تأتمرون ، وتنهون ولا تنهون ، أفتقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا فى أنفسنا فَأَنَّى وكيف وأين المصير من الله ؟ وما الحجة غدا بين يديه ؟ وإن قلتم اطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح من يغش نفسه ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها واقبلوا الموعظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمَّة أمورنا وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا ؟

الصدق فى القول والإخلاص فى العمل

إذا ذكر اسم سفيان الثورى تداعت المعانى الجليلة ، والخصال النبيلة إلى ذهن ذاكره ، فاسم سفيان مقارن للزهد والورع والإخلاص والتقوى والنقاء .

أليس هو الرجل الذى ملأ طباق الأرض (أى : بقاعها) علما وزهدًا ؟

أليس هو القُوام الصُّوام الَّذى رآه أحدكم فى المنام بعد موته ، فقال له : كيف حالك يا أبا سعيد فأنشد قائلا :

نظرت إلى ربى كفاحًا فقال لى
هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما إذا اظلم الدجى
بمهجة مشتاق وقلب عميـر
فدونك فاختر اى قصر اردته
وزرنى فانى منك غير بعيد

بماذا حدثنا التاريخ عن هذا الإمام الجليل وماذا حدث له وهو يخطب المسلمين ذات يوم .

استمع يا أخى بأذن قلبك ، لقد روى أن سفيان الثورى رحمه الله كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله ويرغبهم فى ثوابه ويحذرهم من عقابه ، وكان الناس يتوافدون عليه فصعد يوما منبره على عادته ، فلما استقر به الجلوس وأراد أن يتكلم رفعت إليه امرأة رقعة ، فلما رآها تغير لونه وبكى بكاء شديدا ثم نزل ولم يتكلم ، فسأله أصحابه ومن يعز عليه أن يخبرهم بما فى الرقعة فقرأها عليهم فإذا فيها مكتوب :

يا ايها الرجل المعلم غيـره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيما يصح به وانت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا
ابدا وانت من الرشاد عديم
فابدا بنفسك وانهها عن غيها
فاذا انتهت عنك فانت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويقتدى
بالقول فيه وينفع التَّعْليـم
لا تنه عن خلق وتاتى مثله
عار عليك إذا فعلت عظيـم

فلما قرأ ذلك بكى بكاء شديدا حتى أغمى عليه ، فلما أفاق قالوا له : يا سيدى ، إن كلامك موزون ، وعرضك مصون ، تشفى القلوب بوعظك وتسلى المحزون ، فكيف يؤثر فى قلبك هذا الكلام ، وأنت إمام ، وأى إمام ؟ فبكى ، وقال : أنا ما أصلح أن أتكلم على رؤوس الناس ، فأنا أعرف بنفسى من غيرى ، ثم فاضت عيناه ، واشتغل بوجده وجداه ، وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يتسمعه أو يراه حتى مات رحمه الله(١) .

خفف الحمل فإن العقبة كئود

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون . لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون . هو الله الذى لا إله إلا هُوَ عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحُسْنَى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ١٨ – ١٩] .

قال معاوية بن أبى سفيان لضرار الصدائى وكان من أصحاب الإمام على : يا ضرار صف لى عليا ؟ قال ضرار : اعفنى يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : لتصفنه .

قال ضرار : أما إذا لابد من وصفه ، فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته . كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن ، كان

(١) علمونا أن من كان لديه مكتوب عن أحد الصالحين الورعين الزُّهاد الأتقياء الأنقياء .. فهو مصاحب له . فلِمَ لا نصاحبهم ونكون على آثارهم ؟

.. كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمه ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهدُ لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت .. متمثلا فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، .. يا دنيا غرى غيرى ، ألى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ هيهات هيهات !! لقد باينتك .. طلقتك) ثلاثًا لا رجعة فيها فعمرك قصير ، وخطرك حقير ، آه من قلة الزاد .. سفر ووحشة الطريق ، فبكى معاوية وقال : يرحم الله أبا الحسن ، لقد كان .. فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال ضرار : حزن من ذُبِحَ وَاحِدُهَا فى حجْرِها .

الأسوة الحسنة

فصل :

قال تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليَومَ الآخرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

هذه الآية الكريمة ذكرت أنه لا يَتَأَسَّى بِرَسُولِ اللهِ إلَّا من كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، فكأنها تدلنا على الطريق الذى إن سلكناه تأسينا برسول الله ﷺ . .. بينت أن الغاية هى التأسى وليست شيئا آخر فليس بعد السنة إلا الزيغ ، .. الانحراف عنها هو الضلال البعيد ، قال ﷺ : « **لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو .. أخى موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى** »[1] .

.. عليه الصلاة والسلام : « **كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى .. نبى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم**[2] ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **أو لم يكفهم .. عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

---

(1) .. جـ ١٣ ، ص ٣٥٥ .

(2) .. محمد الدارمى فى سننه . القرطبى : دار الكتب المصرية جـ ١٣ ، ص ٣٥٥ .

وهذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ [الأحزاب : ٢١] قد اشتملت على ثلاثة مباحث :

أولها : الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ .

ثانيها : رجاء الله واليوم الآخر .

ثالثها : ذكر الله كثيرا .

ولنبدأ الكلام عن الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ :

١ – إن الصفات الأساسية للرسول ﷺ وكل رسول كما يذكرها علماء التوحيد أربع هى : الصدق – الأمانة – الفطانة – التبليغ .

والمقصود بالصدق : واضح وهو ألا يكذب أبدًا لأن مبنى الرسالة الصدق وبدونه يتهم الرسول فلا يصدق فى شىء . والمقصود بالأمانة هنا : القيام بحق التكليف قياما كاملا ، وهذا ما عنته الآية الكريمة : ﴿ **إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ومظهر التكليف طاعة الأمر واجتناب النهى ، فالرسول إذن صورة طبق الأصل عن دعوته ، فإنه لا يخالف أمرًا لله ولا يعص الله فى نَهْى ، وإذا كان الإسلام هو دين الله فالرسول إذن هو رسول الله ، وهو الصورةُ العمليَّة للإسلام الذى بعث به .

والمقصود بالفطانة : العقل الراجح والذكاء الخارق والحجة التى لا تدحض ، فإن مهمة الرسول ﷺ إقامة الحجة على من أرسل إليهم ، وأن يقيم الحجةَ إنسانٌ عادِىٌّ : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [النساء : ١٦٥] ورسالة للبشر عامة كرسالة سيدنا محمد ﷺ وشاملة لكل شئون الحياة ، فإنها تحتاج إلى عقل لا مثيل له إذ على صاحبها أن يقيم الحجة على كل إنسان ، كبر هذا الإنسان أو صغر ، فيلسوفا كان أو عاديا ، ولا يخاطب صاحب العقل الكبير بما يخاطب به الغبى .

والمقصود بالتبليغ : أن يبلغَ كُلَّ مَا أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ ، أى يبلغ مضمون رسالته للآخرين

مهما كان هذا المضمون ، خالف هوى الناس أو وافقه ، سخط الناس أم رضوا ، أكرموه أم آذوه : ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله** ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

﴿ **يا أيها الرسولُ بلغ ما أنزل الله إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ [المائدة : ٧] فإذا ما استجاب له من بلغهم ، تكون مهمته تربيتهم وتعليمهم الكتاب ، وشرح هذا الكتاب لهم : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ [الجمعة : ٢] . ﴿ **كما أرسلنا منكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة** ﴾ [البقرة : ١٥١] .

وإذن فمهمته مع من استجاب له تطهيرهم من أهواء الأنفس وشهواتها وأخلاقها السيئة ، وتعليمهم الكتاب ، وكذلك السنة المطهرة الشارحة للكتاب .

وعليه أن يقوم مع من استجاب له بعملية الصراع ضد الجاهلية على أمر الله حتى تكون كلمة الله هى العليا: ﴿**وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة**﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

وهذا كله داخل فى التبليغ ، ولا يقوم إنسان بحق الاقتداء إلا إذا أخذ هذا كله ، فكان صادقا وكان أمينا وكان فطنا وكان مبلغا عن الله ورسوله ﷺ .

ومن التأسى بصفة الأمانة أن يتأسى برسول الله ﷺ بإقامة الفرائض والواجبات ، والسنن بقسميها ، سنن الهدى وسنن العادة ، وأن يتأسى برسول الله ﷺ بترك المحرمات والمكروهات التحريمية .

إن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية يجب عليه أن يكون صورة صادقة لحياة نبى الإسلام ﷺ بيانا وجهادًا وحكمة وحنكة ودراية وعبادة وزهدا وإقداما وثباتا وكرما ورجولة ولطفا ورحمة وحزما ، وإذا ما استطاع كل فرد من أفراد هذه الأمة أن يرتفع هذا الارتفاع ، فإننا نؤكد أنه وقتذاك يحس بطعم إنسانيته تميزا وارتقاءا وتحليقا بالروح فى أشواقها الإيمانية .

نسأل الله أن يجعل رضوانه غايتنا ، ورسولنا قدوتنا فى كل شأن من شئوننا .

رجاء الله واليوم الآخر

المبحث الثانى فى هذه الآية الكريمة : رجاء الله تعالى واليوم الآخر .

اعلم ، وفقنى الله وإياك ، أن الله تبارك اسمه بيده الملك كله ، وإليه يرجع الأمر كله : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير** ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ [الأنعام : ١٨] .

﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

﴿ **يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن** ﴾ [الرحمن : ٢٩] فإذا علمت هذا – ويجب أن تعلمه وتعتقده – فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج
أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه
لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة
لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به
إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالكَ غيرَ الله[1] من أحد
فحسبك الله فى كل لك الله

(١) ما دونه

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [التوبة : ٥١] .

فاللهم اقسم لنا من طاعتك ما تبلغنا به رحمتك ، واقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، واقسم لنا من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا .

اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك .

ومن الخوف إلا منك .

ومن الذل إلا لك .

اللهم أرنا الأشياء كما هى .

أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه .

وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

فعلى المؤمن أن يأخذ فى الأسباب .

ويؤدى ما عليه من واجبات .

ولله عاقبة الأمور .

على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المقاصد : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾**[الجمعة : ٩ - ١٠] .

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [الملك : ١٥] .

قيل لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : ما سِرُّ زُهدِكَ فى الدنيا ؟

قال : أربعة أشياء :

علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى .

وعلمت أن عملى لا يقوم به غيرى فاشتغلت به .

وعلمت أن الله مطلع علىّ فاستحييت أن يرانى على معصية .

وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله .

فاعتقاد المؤمن على الله هو الأساس، والأخذ فى الأسباب تنفيذ لأوامر الله : **﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾**

[الطلاق : ٢].

عن جابر رضى الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد ، فلما قفل رسول الله قفل معهم فأدركتهم القافلة فى واد كثير العفاة ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه ، ونمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، وإذا عنده أعرابى ، فقال : إن هذا اخترط على سيفى وأنا نائم فاستيقظت ، وهو فى يده مصلتا .

قال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله ، ثلاثا ، يمنعنى منك .

قال : الله ، فسقط السيف من يده ولم يعقبه (يتلقاه) وولّى (أى : انصرف لحاله) .

وفى رواية أبى بكر الإسماعيلى فى صحيحه قال : من يمنعك منى ؟ قال : الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذ رسولُ الله ﷺ السيف فقال : من يمنعك منى ؟ فقال : محمد خير آخذ ، فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . قال : لا ، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس .

وفى حديث الهجرة المتفق عليه عن أبى بكر قال : نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال : « **ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما** »

[رواه البخارى ومسلم فى فضل الصحابة ومناقب المهاجرين]

اخذ بالأسباب واعتماد على الله مطلق :

أما رجاء اليوم الآخر فهذه غاية المتوكلين على الله المعتقدين فى لقاء الله ، وقضية الآخرة هى الركن الركين ، والأصل المكين فى عقيدة الإسلام ، ولذا كان دعاء يوسف عليه السلام : **﴿ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾** [يوسف : ١٠٢] .

ودعاء إبراهيم : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ [الشعراء : ٨٤ - ٨٥] .

ودعاء الحبيب محمد ﷺ : ﴿ وقل رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

إن قضية اليوم الآخر هى أهم قضية فى الوجود - على الاطلاق - بعد قضية الألوهية ، وهى ملازمة للإيمان بالله لا تنفصل عنها فإنه من عرف الله وآمن به ينبغى عليه أن يؤمن باليوم الآخر ، الذى سيثاب فيه المحسن على إحسانه ويجازى فيه المسىء على إساءته ، والذى بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم من أجل التبشير والإنذار منه : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [النساء : ١٦٥] به تثبت نتيجة الأمتحان الذى امتحن به الإنسان ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [الملك : ٢] .

ولذلك كانت هذه القضية بالنسبة للمسلم محور عمله كله ، ومحور فكره كله ، يقول الله تعالى : ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد ﴾ [إبراهيم : ٢ - ٣] .

﴿ إن الذين لا يرجون لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النارُ بما كانوا يكسبون ﴾ [يونس : ٨] .

﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ﴾ [النجم : ٣٩ - ٤٠] .

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ [الإسراء : ١٨] .

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ [الشورى : ٢٠] .

فالآيات القرآنية إذن حازمة أن الكافرين هم الذين جعلوا الدنيا هدفهم ومرادهم واستحبوها على الآخرة .

أما المؤمنون فإن هدفهم الآخرة ولها يسعون : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

﴿وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ [القصص: ٧٧].

فالآخرة هى الهدف ، والدنيا طريق لهذا الهدف ، وعلى قدر ما يزداد علم الإنسان يتضح لديه أن الدنيا لا تساوى شيئا بالنسبة للآخرة : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى : ١٦ - ١٧] ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ [القصص : ٨٠] .

وليس معنى كون الآخرة هى الهدف أن المسلم محرم عليه أن ينال شيئا من الدنيا . إن الله تعالى علمنا أن ندعو : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

بل المقصود أن الدنيا ليست هى الهدف ، وإنما ينبغى أن يمر بها المسلم وهو عالم أنه على الطريق إلى هدف آخر ، فما الإنسان فى جيل من الأجيال إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى الزمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾ [النساء : ٧٧] .

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] .

سئل النبى ﷺ عن معنى قوله جل شأنه : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

قيل له : ما هذا الشرح ؟

قال : إن النور إذا دخل فى القلب انشرح له الصدر وانفسح .

قيل : يا رسول الله وهل لذلك من علامة ؟

قال : نعم ، التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله .

ويشرفنا فى هذا المقام أن نسجل على هذه الصفحات المواقف التى وقفها هؤلاء الرجال الذين طلبوا ما عند الله فنالوا الدرجات العلا ، صدقوا الله فصدقهم الله .

نذكر من هؤلاء الرجال الشهيد سعد بن خيثمة .

أما سعد فكان شهيد بدر وأما أبوه خيثمة فكان شهيد أحد .

ولننصت الآن إلى الحقائق تحدثنا حديث الدارس الواعى ، وتنبؤنا بهذه المواقف المشرفة التى آثر فيها هؤلاء الرجال ما عند الله : **﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾** .

لقد كان سعد سيد قومه ونقيبهم فى يوم العقبة وقد وَفَّى ما كان على قيد الحياة ، لقد قال خيثمة لابنه سعد يوم بدر : لابد لأحدنا أن يقيم فآثرنى بالخروج وأقم أنت مع نسائنا ، فأبى سعد وقال له : لو كان غير الجنة لآثرتك به ، إنى أرجوا الشهادة فى جسمى هذا ، فاستهما فخرج سعد وأبلى يوم بدر أحسن البلاء ثم قتل .

إن خيثمة تذكر كل هذا ، تذكر أنه لم يحزن على سعد ، لأنه فى جوار ربه وفى رضوان من الله أكبر .

وأحب خيثمة أن يلحق بابنه وأن يفوز بما فاز به ، فلما طلب الرسول من الناس المشورة ، وقف خيثمة فقال : يا رسول الله إن قريشا مكثت حَوْلًا تجمع الجموع ، وتستجلب العرب فى بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل ، وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا فى بيوتنا ، وحيًّا حيًّا ، ثم يرجعون وافرين (أى : يجرحوا) لم يُكْلَمُوا فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات ويصيبوا أطرافنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صَنَعُوا بحروثنا ، وتجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنذبهم (أى : ندفعهم ونردهم) عن قرانا ، وعسى الله أن يظفرنا بهم ، فتلك عادة الله عندنا أو تكون الأخرى فهى الشهادة .

لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريصا ، لقد بلغ من حرصى أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه ، فرزق الشهادة ، وقد كنت على الشهادة حريصا وقد رأيت ابنى فى البارحة فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأزهارها وهو يقول : إلحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ورقّ عظمى ، وأحب لقاء ربى ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة ، فدعا له الرسول بذلك ، فذكر خيثمة كل هذا ، وترددت دعوة الرسول فى أذنه كأنها ما زالت ترنّ

بعد ، وفى تلك اللحظة تناولته الرماح فسقط شهيدا ، واستقر فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهتف سكان العالم العلوى والملأ الملائكى : **﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾** [المؤمنون: ١٠- ١١].

فهنيئا لك الشهادة يا سعد يا شهيد بدر ، وهنيئا لك الشهادة يا خيثمة يا شهيد أحد : **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾** [يونس : ٩ - ١٠] .

ذكر الله تعالى

هذا هو المبحث الثالث فى هذه الآية الكريمة : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾** وشاهدت فى هذا المبحث قوله جل شأنه : **﴿ وذكر الله كثيرا ﴾** [الأحزاب : ٢١] .

إن الذكر – فى الحقيقة – استحضار عظمة الله تعالى وجلاله وكماله استحضارا قلبيا يبعث على الخشية والمراقبة ، ولابد أن يكون الذكر مصحوبا بالفكر ، كما قال تعالى : **﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جُنُوبهم ويَتفكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّماواتِ والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾** [آل عمران : ١٩١] .

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يذكروه كثيرا، فقال عز من قائل: **﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا. وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾** [الأحزاب: ٤١- ٤٢].

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : **« سبق المفردون . قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا »** [واللفظ لمسلم] .

قال النووى فى بيان الذكر الكثير : قال الإمام أبو الحسن الواحدى ، قال ابن عباس : المراد : يذكرون الله فى أدبار الصلوات وغدوا وعشيا وفى المضاجع ، وكلما استيقظ من نومه ، وكلما غدا أو راح ذكر الله تعالى.

وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا ، أى على كل حال فى حركاته ومشيه وسكونه ونومه ، ومعنى ذلك أن يستحضر عظمة الله وجلاله وكماله فى جميع شئونه ، كما أخبر بذلك الصادق الأمين ﷺ وهو يجيب على سؤال جبريل : « **ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » وليس الذكر قاصرا على تحريك الألسنة والشفاه ، إنما الذكر على سبعة أنحاء :

فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الاصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

آداب الذكـــر

وللذكر آداب يجب مراعاتها ، اجتمعت هذه الآداب فى قوله تعالى : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

إذ أن خشوع القلب متوقف على خشوع الجوارح ، فيستحب لذاكر الله أن يجلس مستقبلًا للقبلة كهيئة التشهد فى الصلاة ، وأن يستحضر عظمة الله حتى يكون بين اللسان والقلب توافق وتجاوب ، فيخشع القلب ويُصَدِّق اللسان .

روى عن عطاء رضى الله عنه : من صلى الصلوات الخمس بحقوقها ، فهو داخل فى قول الله تعالى : ﴿ **والذاكرين الله كثيرا والذاكرات** ﴾ .

وقد جاء فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعا كتبا فى الذاكرين الله كثيرا والذاكرات** » [هذا حديث مشهور ، رواه أبو داود وقال : رواه ابن كثير مَوْقُوفًا على أبى سعيد ولم يذكر أبا هريرة . ورواه النسائى وابن ماجة .. والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الإمام شمس الدين الذهبى] .

أنـواع الـذكـر

ومن تتبع الكتاب والسنة وجد ما يلى :

أن الذكر يتمثل بثلاث نواح :

(١) ناحية عامة وهى استحضار نية العمل لوجه الله فى كل ما يفعله المسلم ، وذلك ذكر .

(٢) ناحية أساسية وهى الصلاة ، فروضها وسننها ، وبدونها لا يكوّن الإنسان ذاكرا وبإكمالها يكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

(٣) ناحية متممة وهى الأذكار المأثورة باختلاف الأحوال والحالات والأوقات والمناسبات .

اما الناحية الأولى : وهى استحضار النية ، فإن نية المرء تعتبر عبادة ما دام ينوى بعمله وجه الله تعالى والتقرب إليه ، ولذا قال ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى** » [رواه الإمامان البخارى ومسلم وغيرهما وهو من أصول الإسلام] .

وقال : « **إذا أنفق المسلم على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة** » [رواه البخارى ومسلم عن أبى مسعود البدرى] فإذا تحولت النية من الخير إلى الشر وعزم صاحبها على تنفيذ ما نوى ، فإن الله تعالى يحاسبه على عزمه وتصميمه .

وهذه الآيات البينات تبين لنا تلك القضية : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا**

إلى ربنا راغبون ﴾ [القلم : ١٧ - ٣٢] .

وأما الناحية الثانية : وهى الصلاة ، فإن الصلاة كلها ذكر ، لذلك قال تعالى : **﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾** [طه : ١٤] .

وقال تعالى : **﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾** [الجمعة : ٩] .

وبمقدار ما يحسن الإنسان فيها يكون ذاكرا ، وبمقدار ما يسىء أو يقصّر يكون غافلا . قال تعالى فى وصف المنافقين : **﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون النّاسَ ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾** [النساء : ١٤٢] .

ومن تأمل الصلاة وجد أن دعاء الافتتاح فيها ذكر ، وفى القيام ذكر ، وقراءة القرآن ذكر ، وفى الركوع ذكر ، وفى القيام منه ذكر ، وفى السجود ذكر ، وفى القعدتين ذكر ، وأورادها الراتبة بعدها ذكر .

فإذا ما أدى الإنسان الصلوات كلها ، فرائضها وسننها ، وما سن له فيها وبعدها وقبلها ، فإن ذلك وحده يجعله من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

وقد روى عن النووى ما يشير إلى ذلك . فإذا ما أقام فريضة الصبح ونافلتها بين الفجر والشمس ، وأقام سنة الضحى بين الشمس والزوال ، وأقام سنة الظهر القبلية وفريضة الظهر وسنتها البعدية بين الزوال والعصر وأقام العصر فى وقتها ، والمغرب وسنتها كذلك ، والعشاء وسنتها ، ثم القيام والتهجد والوتر ، كان لا شك من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

قال عليه السلام : **« من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »** .

وأما الناحية الثالثة وهى الأذكار المأثورة ، فإنه يسن للمؤمن أن يذكر الله على كل حال . فقد كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحواله ، وهذا الباب ليس فيه تحديد ، بل على المسلم أن يذكر الله بشكل مطلق ولا يزال لسانه رطبا بذكر الله .

قال ﷺ : **« جددوا إيمانكم »** . قيل يا رسول الله : كيف نجدد إيماننا ؟ قال : **« أكثروا من قول لا إله إلا الله »** [رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد حسن . وقيل : جيد ، ورجاله ثقاة] .

وقال مولانا تبارك اسمه : **﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾** [النور : ٣٦ - ٣٧] .

وما يجب التنبيه عليه أن المسلم يختار الأمر الوسط دون إفراط أو تفريط ، وهذه سنة الإسلام فى تشريعاته إذ لا يعرف الإسراف ولا التقتير : **﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾** [الفرقان : ٦٧] .

ولذا فإن الله تبارك وتعالى يأمر بذكره بالكيفية التى لا تعطل مصالح العباد وقضاء حوائجهم وتفريج كروبهم وإغاثة ملهوفهم ، وفى الوقت نفسه فإن الإسلام ينهى عن الغفلة ، ويُوصِى بأَنْ يظل القلب حاضرا مع الله يغذيه اللسان بذكر الله .

قال ﷺ : **« مثل الذى يذكر ربه ، والذى لا يذكر ربه ، كمثل الحى والميت ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ »** [رواه الشيخان] .

قال ﷺ : **« ما قعد قَوْمٌ مقعدًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبى ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة للثواب »** [رواه أحمد بإسناد صحيح][1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : **« ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه إلا كان عليهم ترة ، وما من رجل يمشى طريقا فلم يذكر الله عز وجل إلا كان عليه ترة »** .

ومن فضل الله تَعَالَى على عِبَاده ورحمته بهم ، أنه لم يكلفهم بما لا يطيقون أو يشق عليهم فيما أخبرهم به ، فقد وردت فى الذكر صيغة جامعة ، موجزة فى مبناها ، عظيمة فى أجرها وثوابها ، لمن ذكر الله بها .

عن جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حيث صلى الصبح وهو فى مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال : **« ما زلت اليوم على الحال التى فارقتك عليها »** . قالت : نعم ، فقال النبى ﷺ : **« لقد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن :**

---

(١) ينظر ابن كثير ط الشعب جـ ٦ ، ص ٤٦٠ .

سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » [رواه مسلم وأبو داود والنسائى] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **من قال حين يصبح : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ [الروم : ١٩] أدرك ما فاته فى يومه ذلك . ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته** » [رواه أبو داود فى سننه ، والطبرانى : تفسير ابن كثير] .

وهناك أذكار رأينا فى ذكرها التسهيل على العباد ، حتى لا يحرموا من ذلك الخير العظيم والبركة والفضل .

من هذه الأذكار الاستغفار : وهو أن يقول العبد : استغفر الله ، أو أن يقول استغفر الله العظيم ، الذى لا إله إلا هو(١) وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فإن من قالها فى يومه مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتب له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رَجُلٌ عَمِلَ أكْثَرَ منه .

وكلنا نعلم أن هناك كلمتين خفيفتين على اللسان ، ولكنهما ثقيلتان فى الميزان ، وهما : سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده .

كما لا يفوتنا أن نذكر وصية الخليل إبراهيم التى قالها للنبى ليلة المعراج : « **يا محمد أقرىء أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وغراسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر** » .

قال النبى ﷺ : «**ولا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة**» [رواه مسلم].

وغير ذلك من أحاديث الأذكار الصحيحة (الأذكار للنووى ط الحلبى – اللؤلؤ والمرجان طبعة الحلبى – منتقى الترغيب والترهيب ط دار الوفاء) وغيرها .

ومنها حديث سيد الاستغفار : « **اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت .. أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء لك بنعمتى علىّ فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت** » [رواه البخارى] .

(١) هنا دمج ومزج بين الاستغفار والتوحيد .. فاللهم ارزقنا القول الصادق والعمل الصالح .

الصلاة على رسول الله ﷺ

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ [الأحزاب : ٥٦] اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد .

إن الصلاة على رسول الله تخرج صاحبها بفضل الله من ظلمات الغفلة والشهوة وترتفع به من غياهب الظلمات إلى مدارج الأنوار ومعارج الأسرار .

﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدلهم أجرا كريما﴾ [الأحزاب: ٤٣– ٤٤].

قال ﷺ : « **من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات** » .

وروى النسائى عن أبى طلحة أن النبى ﷺ جاء ذات يوم والبشرى فى وجهه فقلنا : إنا لنرى البشرى فى وجهك . قال : « **إنه آتانى الملك ، فقال يا محمد إن ربك يقول إما يرضيك أنه لا يصلى عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا** » [رواه أحمد والنسائى] فهذا فضل الله تعالى على عباده إذا هم صلوا على نبيه ﷺ .

وتتأكد الصلاة على رسول الله ﷺ إذا ذكر اسمه ، لما رواه الترمذى عن على بإسناد حسن : « **البخيل الذى من ذكرت عنده فلم يُصَلِّ عَلَىَّ** » .

ونحب هنا أن نذكر ما جاء فى كتب التفسير عن معنى قوله تعالى : **﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾** [الأحزاب : ٥٦] .

قال البخارى : قال أبو العالية :

صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الثناء .

وقال ابن عباس : يصلون أى يباركون .

وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار .

وروى عن عطاء بن أبى رباح : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى** ﴾ قال : صلاته تبارك وتعالى : سبوح قدوس سبقت رحمتى غضبى .

والمقصود من هذه الآية ، أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر الله تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث بن إسحاق عن جعفر ، يعنى بن المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام : هل يصلى ربك ؟ فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل يصلى ربك ؟ فقل نعم ، أنا أصلى وملائكتى على أنبيائى ورسلى ، فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ [الأحزاب : ٥٦ السابق الإشارة إليها] .

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ [الأحزاب : ٤١ – ٤٣] .

وقال جل شأنه : ﴿ **وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ [البقرة : ١٥٥ – ١٥٧] .

وفى الحديث الشريف : « **إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف** » [رواه أبو داود وابن ماجة بإسناد حسن] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر يصلون على معلم الناس الخير** » .

وللطبرانى فى الأوسط والكبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى عليه الله وملائكته حتى تغيب الشمس** » .

كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ

وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تبين لنا كيفية الصلاة عليه ، كما تفيد الأمر بالصلاة عليه .

قال البخارى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ .

قال : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد أخبرنا أبى عن مسعر عن الحكم عن ابن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله : أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : « **قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد** » .

ومعنى قولهم لرسول الله ﷺ : قد علمنا السلام عليك ، فالمقصود ما جاء فى التشهد وهو : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

وفى حديث آخر قالوا : يا رسول الله كيف نصلى عليك ؟ قال : « **قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد** » .

وعن أبو مسعود البدرى رضى الله عنه أنهم قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا فقال : « **قولوا : اللهم صلى**

على **محمد وعلى آل محمد** » وذكره . ورواه الشافعى رحمه الله فى مسنده عن أبى هريرة مثله . ومن هنا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله ﷺ فى التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته[1] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا إسماعيل عن أبى داود عن بريدة قال : قلنا يا رسول الله : قد علمنا كيف تسلم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : **« قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد »** .

وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه . قال : فقالوا له فَعَلِّمْنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة ، اللهم ابعثه مَقامًا محمودا يغبطه به الأولون والآخرون . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد [أشار ابن كثير إلى وقفه] .

وفى رواية قالوا : يا رسول الله علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : **« اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وارحم محمدًا وآل محمد ، كما رحمت آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد »** فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبى ﷺ كما هو قول جمهور العلماء ، ويقويه حديث الأعرابى الذى قال : اللهم ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فقال رسول الله ﷺ : **« لقد حجرت واسعا (أى : ضَيَّقْتَ) »**[2] .

(١) تفسير ابن كثير ط الشعب جـ ٦ ، ص ٤٥٠ .

(٢) ابن كثير ط الشعب جـ ٦ ، ص ٤٥٤ ورحمه الله أورد صيغا كثيرة .

بركات الصلاة على رسول الله ﷺ

ومن بركات الصلاة على رسول الله ﷺ أن الملائكة تصلى على من صلى عليه ما دام يصلى عليه .

قال ﷺ : **« من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر »** .

وروى أبو عيسى الترمذى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علَىَّ صلاةً »** .

وعن زيد بن طلحة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« آتانى آت من ربى فقال لى : ما من عبد يصلى عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرا »** فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ألا أجعل نصف دعائى لك ؟ قال : إن شئت . قال : ألا أجعل ثلثى دعائى لك ؟ قال ؟ قال : **« إن شئت »** ، قال : ألا أجعل دعائى كله لك ؟ قال : **« إذن يكفيك الله هَمَّ الدنيا وَهَمَّ الآخرة »**[1] .

وروى أحمد رضى الله عنه بسنده عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلا ، فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون قد توفاه الله أو قبضه . قال : فجئت أنظر فرفع رأسه ، فقال : **« مالك يا عبد الرحمن ؟ »** قال : فذكرت ذلك له ، فقال : **« إن جبريل عليه السلام قال لى : ألا أبشرك أن الله عز وجل يقول : من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه »** .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى فى وجهه فقالوا يا رسول الله إنا لنرى السرور فى وجهك فقال : « **إنه أتانى الملك فقال : يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول : إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد**

(١) ابن كثير جـ ٦ ط الشعب ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

أمتك إلا سلمت عليه عشرا قلت : بلى »[1] .

وقال الإمام أحمد رواية عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **صلوا علىّ فإنها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى أعلى الجنة ولا ينالها إلا رجل وأرجوا أن أكون أنا هو** »[2] [وإسناده فيه بعض من تكلم فيه] .

معنى طلب الوسيلة لرسول الله أن يقول العبد : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : من صلى على رسول الله ﷺ صلاةً صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة فليقل بعد ذلك أو ليكثر .

وعن عبد الله بن عمرو قال : « **خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودع فقال : أنا محمد النبى الأمى – قاله ثلاث مرات – ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزنة النار ، وحملة العرش ، وتجوز بى ، عوفيت وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه** » .

من أبخل الناس ؟

بين الرسول ﷺ فى أحاديثه أن البخيل بل إن أبخل الناس من إذا سمع اسم الرسول يذكر فلا يصلى عليه . قال ﷺ : « **البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علىّ** » [رواه النسائى وابن حبان] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **بحسب امرىء من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى علىّ** » .

(١) ابن كثير ط الشعب جـ ٦ ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

(٢) ينظر حديث مسلم فى إجابة المؤذن فى الصفحة التالية .

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **رغم أنف امرىء ذكرت عنده فلم يصل علىّ ، ورغم أنف امرىء دخل رمضان عليه ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك أبواه عنده الكبر فلم يدخلاه الجنة** » [حديث حسن . وقال الشيخ شاكر رحمه الله : إسناده صحيح] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم** » [ينظر تفسير ابن كثير للآية] .

وقد روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « **ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون علىّ إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة ، وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب** » .

وروى الإمام أحمد رضى الله عنه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **إذا سمعتم مؤذنًا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة ، صلى الله بها عشرًا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة ، حلت عليه الشفاعة** » [رواه مسلم وأبو داود والترمذى] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **صلوا علىّ فإن صلاتكم علىّ زكاة لكم ، وسلوا الله لى الوسيلة ، والوسيلة أعلى درجة فى الجنة** » .

وروى الإمام أحمد بسنده عن رويفع بن ثابت الأنصارى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من صلى على محمد وقال : اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتى** » [رواه البزار والطبرانى وبعض أسانيدهم حسن] .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى وارفع درجته العليا واعطه سؤله فى الآخرة والأولى كما أتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وروى الإمام أحمد بسنده عن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « **اللهم اغفر ذنوبى**

وافتح لى أبواب رحمتك » ، وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « **اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك** » .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبى ﷺ .

وروى الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصل على نبيك . [حديث مرفوع : تحفة الأحوذى] .

وروى الإمام أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث أبى الجوزاء عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر : « **اللهم أهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت** » .

وزاد النسائى فى سننه بعد ذلك : « **وصلى الله على محمد** »(1) .

(1) ابن كثير جامع الشعب جـ ٦ ، ص ٤٦٣ .

الصلاة على المختار يوم الجمعة وليلتها

ليس هناك أدنى شك فى أن خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، وذلك لأنه عيد المسلمين ، والسموات والأرض تحتفى بهذا اليوم العظيم .

ومن أفضال هذا اليوم أن الصلاة على رسول الله ﷺ فيه لها أعلى المكانات وأعظم الدرجات مما يستحب معه الاكثار من الصلاة على النبى ﷺ يوم الجمعة وليلته .

اسمع معى ما رواه الإمام أحمد فى مسنده بسنده عن أوس بن أوس الثقفى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة وفيه الصعقة ، فأكثروا علىَّ من الصَّلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علىَّ** » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ؟ (يعنى وقد بليت) . قال : « **إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء** » .

وروى عبد الله بن ماجة بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أكثروا الصلاة علىَّ يوم الجمعة ، فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحدا لن يصلى علىَّ فيه إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها . قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال : وبعد الموت إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء** » فنبى الله حىٌّ يرزق .

وقال الشافعى : أخبرنا إبراهيم بن محمد ، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبى ﷺ قال : « **إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة فأكثروا الصلاة علىَّ** » [مرسل] .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ، لأنها عبادة ، وذكر الله شرط فيها ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها : كالأذان والصلاة ، وهذا مذهب الشافعى وأحمد رضى الله عنهما . ومن ذلك يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ . قال أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما منكم من أحد**

يسلم علىَّ إلا رَدَّ الله علىَّ روحى حتى أرد عليه السلام » [تفرد به أبو داود وصححه النووى فى الأذكار] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ، ولا تجعلوا قبرى عيدًا ، وصلوا علىَّ فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم »** [سنن أبى داود] .

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

صلت عليك ملائكة الرحمن
وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزونًا
بحمى الإله وراية القرآن

تباركت ربنا وتعاليت ، جلت حكمتك ، وعمت رحمتك ، وعظمت رأفتك ، ارسلته هاديًا للناس ، ووصفته فى التوراة بقولك : **« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا »**(١) .

صلوات ربى وسلامه عليك يا مبعوث العناية الإلهية ، يا من أرسلك الله رحمة للعالمين ، يا خاتم الأنبياء والمرسلين ، يا قائد الغر المحجلين ، يا إمام الموحدين : يا من قال الله فى شأنك : **﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرا ﴾** .

وقال فى شأنك : **﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾** .

(١) البداية والنهاية والشمائل لابن كثير .

هؤلاء أحبهم الله

قال عز وجل فى الحديث القدسى الجليل : **« وجبت محبتى للمتحابين فىَّ والمتزاورين فىَّ والمتباذلين فىَّ »** [رواه مالك بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل رضى الله عنهم] .

إن من عباد الله ناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم(١) الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله ، قالوا : يا رسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : **« هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ »** [رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ] .

وروى أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : **« ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم(٢) الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدًا لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار »** [رواه الشيخان والترمذى والنسائى] .

وروى الترمذى عن معاذ عن رسول الله ﷺ فى الحديث القدسى : **« المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء »** .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : **« يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون لجلالى : اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى »** [رواه مالك ومسلم] .

وعن أبى ذر قال : يا رسول الله : الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم ،

(١) يغبطهم : أى يتمنون أن يكون لهم مرتبتهم وإن كانت المزية لا تقتضى الأفضلية . والحديث رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له هناك ، منتقى الترغيب والترهيب جـ ٢ ، ص ٧٨٨ .

(٢) طعم : حلاوة .

قـ ... « أنت يا أبا ذر مع من أحببت » . قال : فإنى أحب الله ورسوله : قال : « فإنك مع من أحببت » ، فأعادها أبو ذر ، فأعادها ﷺ .

وعن النبى ﷺ أنه قال : « **عن يمين الرحمن – وكلتا يديه يمين – رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغشى بياض وجوههم نظر الناظرين ، يغبطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله عز وجل** » ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « **جماع من نوازع القبائل** (أى أخلاط من أعراب القبائل) **يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقى آكل التمر أطايبه** » .

وروى مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى ، فأرصد الله على مدرجته ملكًا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله ، قال : **فإنى رسول الله إليك ، أن الله قد أحبك كما أحببته فيه** .

[المدرجة : الطريق . تربها : تقوم وتسعى لصلاحها] .

وعن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان** » [رواه أبو داود ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى] .

وروى الترمذى وأبو داود عن المقدام عن رسول الله ﷺ : « **إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه** » .

ندرك مما مضى أن من طرق الوصول إلى محبة الله :

أولا : الحب فى الله ، وهذه المحبة لا تتحقق إلا إذا كانت خالية من الغرض ، إيجابية فى الخير .

ثانيا : التزاور فى الله .

ثالثا : البذل فى الله .

وهذه كلها طرق سهلة وميسرة ونتائجها كثيرة وكبيرة وعظيمة عند الله .

التقــوى

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ [التوبة : ٤] التقوى هى السلاح الأقوى ، ولذا جاءت جامعة لكل معانى الإنسانية ، ولكل معانى البر . قال الله جل شأنه : ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾ [النساء : ١٣١] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولٰكنَّ البر من اتقى** ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

ولقد سئل الإمام على كرم الله وجهه عن التقوى فقال : التقوى هى : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى صدره وقال : « **التقوى ها هنا** » ، وهذه الكلمة الجامعة رسالة الأنبياء إلى **أقوامهم** ، فمن اتقى الله خافه ، ومن خاف الله عرفه ، ومن عرف الله أحبه ، ومن أحبَّ الله أَحَبَّهُ الله .

قال تبارك اسمه : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ ومن أحب الله وأحبه الله استحيا من الله ، ومن كان الحياء خلقه لزم الوقوف على طاعة من أحبه ، وإلا لم يكن صادقًا فى دعواه .

اقرأ معى :

تعصى الإله وانت تظهر حبه
هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

حقيقة التقوى : ألا يراك ربك حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك .

ولذا قيل لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : ما سر زهدك فى الدنيا ؟ قال : أربعة أشياء : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى ، وعلمت أن عملى

لا يقوم به سواى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع علىَّ فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله(١) .

تزود من حياتك للمعاد
وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا قليلًا
فإن المال يجمع للنفاد
اترضى ان تكون رفيق قوم
لهم زاد وانت بغير زاد

وكلمة التقوى هذه كانت المقياس الصحيح للدعوة إلى الله : ﴿ **وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون** ﴾ [الشعراء : ١٠ – ١١] ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح إلا تتقون** ﴾ [الشعراء : ١٠٥ – ١٠٦] ﴿ **كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون** ﴾ [الشعراء : ١٢٣ – ١٢٤] ﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون** ﴾ [الشعراء : ١٦٠ – ١٦١] ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون** ﴾ [الشعراء : ١٧٦ – ١٧٧] .

﴿ **الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بمَا أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولٰئك علَى هُدًى مِن ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ [البقرة : ١ – ٥] .

وهكذا ورد تفسير التقوى فى هذا المشهد بالإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة والانفاق مما رزق سبحانه ، والإيمان بالكتب السابقة وبالقرآن الكريم ، كما ورد تفسيرها بمعنى آخر جليل فى قوله جل شأنه : ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ [آل عمران : ١٥ – ١٧] .

(١) انظر : أدب الدين والدنيا للمصرى .

فأنت ترى تفسير التقوى فى هذا الموضع أولًا : بالتوجه إلى الله بالدعاء أن يغفر الذنوب ويقيهم عذاب النار ، وثانيًا : بالصبر والصدق والقنوت والانفاق والاستغفار بالأسحار .

وفى موضع آخر يقول الله تعالى فى وصف المتقين : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السرَّاء والضَّرَّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾ [آل عمران : ١٣٣ – ١٣٦] .

وفى موضع آخر يصف الله المتقين بقوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءا وذكرى للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون** ﴾ .

وفى موضع آخر يصف المتقين بقوله: ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم بأنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون. وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ [الذاريات: ١٥- ١٩].

وفى سورة أخرى يقول الله تعالى فى وصف المتقين : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأسًا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾ [الطور : ١٧ – ٢٨] .

فأنت ترى فى المشهد الكريم أن هؤلاء المتقين قد وصفهم الله بالإشفاق أى الخوف من معصية الله ، جعلوا الله عليهم شهيدًا ووكيلًا وكفيلا ورقيبًا وسميعًا وبصيرا وعليما : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ [غافر : ١٩] ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله**

إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : ٥ - ٦] .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء : ١] .

ومن ثم فإن مدار التقوى على مخافة الله ، لأن من خاف سلم ، ومن سلم نجا ، ومن نجا فقد فاز ، وذلك هو الفوز العظيم .

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا
وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب
ولكن الذى يمضى بعيد

قيل لتقى الله الحسن البصرى : أى الأيام عندك عيد ؟ فقال : كل يوم لا أعصى الله فيه ، فهو عيد .

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى
تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَلَوْ كَانَ كَاسِيًا
وخير لباس المرء طاعة رَبِّـه
ولا خير فيمن كان لله عاصيا

يحب الصابرين

من أجلّ ما يؤتى المؤمن فى هذه الدنيا اليقين والصبر ، فإذا اجتمعا لعبد مؤمن عاش فى دنياه طيب القلب ، قرير العين ، سعيد الحال . قال تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ . [النحل : ٩٦]

ذلك أن الصبر فضيلة من أجل الفضائل ، ولذا قال الله فى جزاء أصحابها : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ [الزمر : ١٠] .

وقد أخبر جل شأنه أنه يحب الصابرين فقال : ﴿ **وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

الصبر هو مقاومة النفس للهوى لئلا تنقاد للقبائح ، أو هو ثبات باعث على الدين فى مقابل باعث على الشهوات ، وينقسم إلى قسمين :

(١) صبر جسمانى .

(٢) صبر نفسانى .

وقد اجتمعا فى قول أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال : « **ما يصيب المؤمن من نصب ، ولا وَصَب ، ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يُشاكها وصبر عليها (أى : يحتسبها) إلا كفر الله بها من خطاياه** » [وتنظر رواية مسلم لتغاير اللفظ والمعنى واحد] .

فأنت إذا صبرت على تحمل الشدائد فى سبيل لقمة العيش ، فأنت من الصابرين الذين إذا باتوا كَالِّين من عمل أيديهم ، باتوا مغفورًا لهم .

أما الصبر النفسانى ، فأقسام أربعة :

(١) الصبر عن الشهوة الجنسية : عفة .

(٢) الصبر عن شهوة الغنى : قناعة .

(٣) الصبر على جهالة الجاهلين : حلم .

(٤) الصبر على احتمال المصائب : شجاعة .

وبهذا يتبين لنا أن الصبر فضيلة ، وأن الجزع - وهو المقابل - رذيلة ، وهذا مثل من أمثال صبر الرسول ﷺ التى تعددت فى الشدائد .

وهذا المشهد وقع يوم أحد ، مع أعز الناس وأكرم الرجال وأشجع الفتيان : إنه

حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وعم رسول الله وأخوه فى الرضاعة ، والذى قال فيه النبى الحبيب : **« جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع : أسد الله وأسد رسوله »** .

كان حمزة رضى الله عنه يعرف عظمة ابن أخيه وكماله ، وكان على بينة من حقيقة أمره وجوهر خصاله .

فهو لا يعرفه معرفة العم بابن أخيه فحسب ، بل يعرفه معرفة الأخ والصديق ، ذلك أن الرسول ﷺ وحمزة رضى الله عنه من جيل واحد ، وسن متقاربة ، نشأ معًا وتآخيا معًا وسارا معًا على الدرب من أوله خطوة خطوة .

دارت المعركة يوم أُحد ، واشتد القتال ، وحمى الوطيس ، وصمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب .

فلا ترى إلا رءوسًا تنفر ، ودماء تهدر ، ورخصت الأرواح فى أسواق الموت ، وتمشى ملك الموت يقبض أرواح أعداء الله إلى جهنم ، وفتحت الجنة أبوابها تستقبل الشهداء الذين كتبوا بدمائهم صفحات الفخار والمجد ، ونزل أسد الله حمزة الميدان وهاج فى صفوف المشركين ، وزأر زئير الأسود إذا دِيسَ (هوجم) عرينها ، قال (وحشى ابن حرب) : والله إنى لأنظر حمزة يهد الناس بسيفه ، ثائر الرأس ، ما يلقى شيئًا يمر به ، مثل الجمل الأورق ، إذ قد تقدمنى إليه (سباع) وهو يقول : ألا من مبارز ؟ فقال له حمزة : هلم ، ثم ضربه ضربة هائلة قتلته . قال وحشى : وكنت كامنًا وراء صخرة لا يرانى وهززت حربتى ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوى فَغُلِبَ فَوَقَعَ ، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتى ، ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم يكن لى حاجة بشىء غيره . وكان ذلك آخر العهد به . وأقبلت هند بنت عتبة ، على حمزة فبقرت كبده ولاكتها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر

شفيت نفسى وقضيت نذرى
شفيت (وحشى) غليل صدرى
فشكر لوحشى علىَّ عمرى
حتى ترم اعظمى فى قبرى

ووقف أبو سفيان زوج هند بنت عتبة يضرب فى وجه حمزة برمحه مظهرًا الشماتة والتشفى ، وأبلغ رسول الله ﷺ الخبر المفجع والحدث الجلل .. ورأى عمه وأخاه فى الرضاعة ورفيق عمره وقد بقر بطنه ، وأخرج كبده ومثل به ، وجدع أنفه وأذناه . فقال : **« لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم »** . ثم قال : **« والله يا عم ما وقفت موقفًا أغيظ إلىَّ من هذا »** (أى : هذا الموقف) .

وقال الرسول للزبير بن العوام : قل لأمك صفية وكانت شقيقة حمزة : **« ارجعى حتى لا ترى مصرع أخيك »** .

فقال لها الزبير : يا أماه : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى .

فقالت : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلكم فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .

فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قال له : **« خلِّ سبيلها »** .

ودفن حمزة مع ابن أخيه (عبد الله بن جحش) .

ونزل سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء بهذه الآيات القرآنية ، التى تفوح مسكًا وعبيرًا وتتقاطر نورًا ورحمة : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضَيْقٍ مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ [النحل : ١٢٦ - ١٢٨] .

وصبر الرسول ﷺ راضيًا بقضاء الله وقدره . وكيف لا وهو سيد الصابرين وإمام الشاكرين العابدين .

من أقوال الرسول ﷺ فى الصبر

عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها** » [رواه مسلم والترمذى ، وابن ماجة إلا أنه قال : إسباغ الوضوء شطر الإيمان] .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « **ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر** » [رواه البخارى ومسلم] .

وعن أنس عن النبى ﷺ قال : « **أربع لا يصبن إلا بعجب : الصبر وهو أول العبادة ، والتواضع وذكر الله ، وقلة الشىء** » [رواه الطبرانى] .

وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يدك أوثق منك بما فى يد الله ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك** » .

وعن علقمة قال : قال عبد الله : الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله [رواه الطبرانى فى الكبير] .

وعن جعفر بن أبى طالب أن النبى ﷺ قال : « **الصبر مِعْوَلُ (أى : المحور والوتد الذى يشده ويثبته) المسلم** » .

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن : إن أصابته سراءُ شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراءُ صبر ، فكانَ خيْرًا له** » [رواه مسلم] .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « **إن الله عز**

وجل قال : يا عيسى إنى باعث من بعدك أمة ، إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم . فقال يارب : كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيهم من حلمى وعلمى » [رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى . منتقى الترغيب والترهيب : جـ ٢ ، ص ٨٨١] .

وقال رسول الله ﷺ : « **من أعطى فشكر ، وابتلى فصبر ، وظلم فاستغفر ، وظُلم فغفر ، ثم سكت ، فقالوا يا رسول الله : ما له ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** » [رواه الطبرانى] .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما ابتلى الله عبدًا ببلاء وهو على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطّهورًا ما لم يَنزل (ينسب ويفوض) ما أصابه من البلاء بغير الله عز وجل ، أو يدعو غير الله فى كشفه** » .

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « **الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة** » [رواه ابن ماجة والترمذى وقال : حديث حسن صحيح] .

المقاتلون فى سبيل الله

إن الله تبارك وتعالى يحب المحسنين ، ويحب التوابين والمتطهرين ، والمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه ، والمتقين والصابرين .

وها هو القرآن الكريم فى جلاله وعظمته يبين ويؤكد - إضافة إلى ما سبق - أن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

روى الترمذى عن عبد الله بن سلام قال : كنت جالسًا فى نفر من أصحاب النبى

ﷺ نتذاكر نقول : لو كنا نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه ، فنزل قوله تعالى : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم . يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [الصف: ١ – ٤] .

إن الحق لابد أن تسانده قوة تدافع عنه ، ولذا قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديدٌ ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ [الحديد : ٢٥] .

وقد ضمن الله النصر لعباده المؤمنين فقال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر : ٥١] . وقال : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ [المجادلة : ٢١] .

ولا مجال للتشاؤم فإن المستقبل للإسلام ويبشر بأن حكم الله وما أنزله على نبيه لابد أن يفيء إليه العالم ... بمعنى أن الإسلام قَادِمٌ قَادِمٌ بإذن الله عاجلًا أو آجلًا .. لا محالة .

جاء فى الصحيح : « من قال : هلك المسلمون فهو أهلكهم » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أمتى مثل المطر ، لا يُدرى آخِرُهُ خيْرٌ أَمْ أَوَّلُهُ » .

وكيف يتشاءم المسلم والمبشرات قد وردت على لسان رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين :

جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشرقها ومغربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل يعز الله به الإسلام وذلًا يذل به الكفر » .

وقد سئل الرسول ﷺ : أى المدينتين تفتح أولًا : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « مدينة هرقل تفتح أولًا » يعنى قسطنطينية .

ثم يبشرنا نبى الله ﷺ بوحى من الله ما كان وما سوف يكون فيقول بلسان الصادق الأمين : « إن أول دينكم نبوة ورحمة ، وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون[1] ، ثم يرفعها الله جل جلاله ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها جل جلاله ، ثم تكون ملكًا عاضًا (أى : عضوضًا) فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعه جل جلاله ، ثم يكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله جل جلاله ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل فى الناس بسنة النبى ويلقى الإسلام بجرانه فى الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض ، لا تدع السماء من قطر إلا صبته مدرارًا ، ولا تدع الأرض من نباتها ولا بركاتها شيئًا إلا أخرجته » .

صدقت يا رسول الله فأنت الصادق الأمين ، والإنسان المعصوم الذى ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

وبعد ...

قد كانت هذه إشعاعات من نور أضاءت لنا الطريق فى قضية الألوهية ، وفى الحديث عن نبى الرحمة ، وأثر الاقتداء به ، وبينا فيها الصفات التى يجب على كل مسلم أن يتحلى بها حتى ينال محبة الله .

ومهما كتب القلم وأملى اللسان وفكر الجنان وعبر البيان ، فما كل هذا إلا جزء من كل ، وغيض من فيض ، وسطر من قمطر ، وقطرة من بحر ، وما أنا بجانب هذه الحقائق وتلك المبادىء إلا كشعاع الشمس المتسلل من حنايا النافذة .

وما أنا منك يا رسول الله ، إلا كذلك الأعرابى الذى ضل الطريق فى الصحراء ، فلما طلع القمر اهتدى بنوره فى مسالك الشعاب ، فقال للقمر : أيها القمر أنا لا أدرى ماذا أقول لك ؟ أأقول رفعك الله ؟ لقد رفعك . أأقول : جملك الله ؟ لقد جملك . أأقول نورك الله ؟ لقد نورك .

وأنا ماذا أقول عنك يا رسول الله ؟

أأقول : رفعك الله ؟ لقد رفع الله ذكرك ، فقال : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

(١) انظر بدايات هذا الحديث فى جـ ١ من الفتن والملاحم (البداية والنهاية) لابن كثير .

أقول : جمَّلك الله ؟ لقد جملك فقال : ﴿ وسراجًا منيرا ﴾ .

أقول : نوَّرك الله ؟ لقد نوَّرك فقال : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا سيدى يا رسول الله معذرة
إذا كبا[1] فيك تبيانى وتعبيرى
ماذا اوفيك من حق وتكرمة
وانت تعلو على ظنى وتقديرى[2]
اقبلت كالفجر وضاح الأسارير
تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
على جبينك نور الحق منبلجًا
وفى يديك لواء العدل والنور

صلى الله عليك يا علم الهدى . ما هبت النسائم ، وما ناحت على الأيْكِ الحَمَائِمْ .

تم بحمد الله

المؤلف

عبد الحميد كشك

(١) قصُر وما وفَّى حقَّك من البيان لمنزلتك وتفضيلك .
(٢) نحن كلنا دونك .. فكيف نوفيك حقَّك فى كل شىء .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة	٨
فصل الساعة آتية لا ريب فيها	١١
أطوار خلق الإنسان	٢٧
طور الطين	٢٧
طور النطفة	٣٣
الرحم	٤٣
طور العلقة	٤٦
طور المضغة	٥٩
طور العظام واللحم	٦٢
اليوم الحق	٦٣
البعث حق	٨٠
أدلة البعث	٨٠
أدلة أخرى	٨١
عظمة الكون	٨٣
حديث العلم	٨٦
الخلية وحدة الحياة	٩٠
البعث حق	٩٧
القرآن والبعث	٩٨
جدد السفينة فإن البحر عميق	١٠١

الموضوع	الصفحة
ثمرات الحب فى الله	١٠٦
أكثر من الزاد فإن السفر طويل	١٠٧
جملة من وصايا الرسول - ﷺ -	١١٠
اخلص العمل فإن الناقد بصير	١١٣
كلمة حق خالدة	١١٤
الصدق فى القول والإخلاص فى العمل	١١٥
خفف الحمل فإن العقبة كئود	١١٧
الأسوة الحسنة	١١٨
رجاء الله واليوم الآخر	١٢١
ذكر الله تعالى	١٢٧
آداب الذكر	١٢٨
أنواع الذكر	١٢٩
الصلاة على رسول الله ﷺ	١٣٣
كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ	١٣٥
بركات الصلاة على رسول الله ﷺ	١٣٧
من أبخل الناس	١٣٨
الصلاة على المختار يوم الجمعة وليلتها	١٤١
هؤلاء أحبهم الله	١٤٣
التقوى	١٤٥
يحب الصابرين	١٤٨
من أقوال الرسول ﷺ فى الصبر	١٥٢
المقاتلون فى سبيل الله	١٥٣
الفهرس	١٥٧